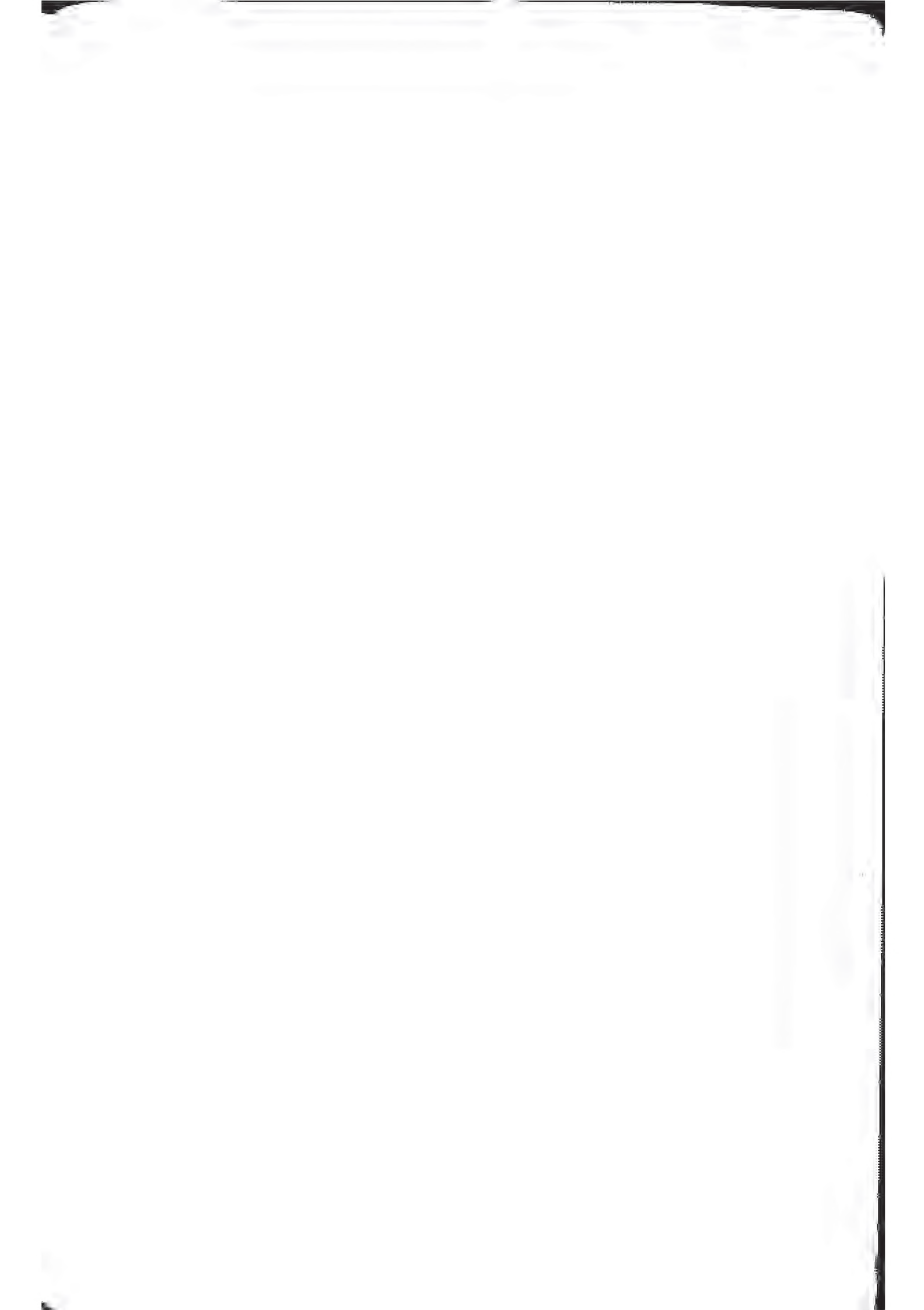


تفسير
سورة النور
لابن تيمية

تحقيق
صلاح عزام



المؤلف والكتاب

هذا التفسير النادر المبارك من التراث الخالد
الذي بقي لنا من مؤلفات وعلم ابن تيمية الفقيه العالم
والذي كان ولا يزال لهو له أكبر الأثر في حياتنا
الفكرية ..

وقد تختلف مع الفقيه الكبير في بعض ما ذهب إليه
في بعض النواحي .. ولكننا لا نملك إلا الإعجاب والتقدير
لآرائه وأفكاره .. ونلتزم لبعض اتجاهاته المضادة
للمصوفية أنه رأى في عصره من المظاهر التي لا يرضى
بها أقطاب التصوف أنفسهم لو كانوا على قيد الحياة
.. و .. رأى أيضا أن المجتمع الإسلامي في حاجة
ماسة إلى من يشده جذبا إلى نور العلم المحمدي ..
وإلى طريق الله الحق .. ومن هنا كانت ثورته الرائدة
.. وتسخير كل علمه إلى ما يصلح المجتمع .. ويقوم
الحاكم ..

وهذا الولاء العجيب العميق لدينه والمجتمع
المسلم هو الذي جعله يتأثر بهذا المنهج في تفسيره
القرآن الكريم ..

ونحن - للحق - لسنا من الذين يحكمون على
الفقيه العظيم ابن تيمية أو يحاكمونه لأنه أبدى آراء
لا تتفق مع بعض جوانب حياتنا .. فهو رحمه الله أكبر
من هذا ..

وهو الذي قال عنه المؤرخ المشهور في « معجم
شيوخه »

شيخنا وشيخ الإسلام ، وفريده المصير علما ومعرفة
وشجاعة وذكاء ، وتنويرا الهيا ، وكرما وتصحا للامة
واسرا بالمصروف ونهيا عن المنكر .

سمع الحديث وأكثر من نفسه من طلبه ، وكثب
وخرج ، ونظر في الرجال والطبقات ، وحصل ما لم
يحصله غيره ، وبرع في تفسير القرآن ، وغاص في دقيق
معانيه ، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها وبرع في
الحديث وحفظه فقل من يحفظ ما يحفظه من الحديث
مفردا الى اصوله وصحابه .

وفاق الناس في معرفة الفقه واختلاف المذاهب
وقتاوى الصحابة والتابعين بحيث اذا افتى لم يلتزم
بمذهب بل يقول بما دليله عنده ..

واتقن العربية اصولا وفروعا وتذبللا واختلافا
ونظر في العقليات وعرف آراء المتكلمين ورد عليهم ونبه
على خطئهم وحذر منهم .

ونصر السنة بأوضح حجج وأبهر براهين وأودى
في ذات الله من المخالفين وأخيف في نشر السنة المحضة
حتى أعلی الله مناره وجمع قلوب أهل التقوى على
محبه والدعاء له وكبت أعداءه وهدى به رجالا من أهل
الملل والنحل ..

وجبل قلوب الملوك والأمراء على الاتقياد له غالبا
وعلى طاعته وأحيا به الله الشام بل والإسلام بعد أن
كاد ينظم لما قبل حرب التتر والبقي في خيلائهم ..
ومحاسنه كثيرة وهو أكبر من أن يثبه على سيرته
مثلى فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت أنى ما رايت
يعنى مثله وأنه ما رأى مثل نفسه ..

وقال عنه أحد كبار خصومه كمال الدين بن
الملكاني شيخ الشافعية بالشام (كان إذا سئل عن
فن من الفنون ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير
ذلك الفن وحكم أن أحدا لا يعرف مثله - وكان الفقهاء
من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في سائر
مذاهبهم منه ما لم يكونوا يعرفونه قبل ذلك ..)

ولا يعرف أنه ناظر أحدا فانقطع معه ولا تكلم في
علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها
إلا فاق فيه أهله والمنسوب إليه وكانت له اليد الطولى
في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم
والتبيين ..

ولتعد الى تاريخه رضى الله عنه في سطور عاجلة في
محاولة لتعريف القارئ الحديث به .

● هو أحمد بن عبد الحليم نقى الدين بن تيمية
المولود في حران يوم ١٠ ربيع أول سنة ٦٦١ هـ .

● تلقى علومه على مذهب الحنابلة وكان أول
شيوخه والده الذي كان يشغل منصب شيخ دار
الحديث .

● لم يترك علما الا أخذ منه .

● تولى الإفتاء وبدأ التأليف وهو في التاسعة عشر
من عمره . . وعندما توفي والده وكان قد بلغ الواحدة
والعشرين أخذ مكانه في لقاء الدروس .

● كان له رأى في كل ما يدور في المجتمع الإسلامى
.. وعلى كافة المستويات .. الأمر الذى أكسبه
خصومة عدد كبير من العلماء ومشايخ التصوف ..
والحكام ..

● ابتداء من عام ٧٠٥ هـ بدأ ينمض لأنواع مختلفة
من الاضطهاد والتعذيب .. فدخل السجن بدمشق
مرتين واستدعى الى مصر .. حيث سجن بها ١٨ شهرا
بالقاهرة .. ومرة أخرى بالأسكندرية .. وظل بها الى
عام ٧٠٩ هـ حين أخرجه السلطان المظفر بيبرس وقربه
وكان يستشير في كثير من أموره .

● وفي عام ٧١٢ هـ عاد إلى دمشق يواصل رسالته داعيا إلى الحق تبارك وتعالى منددا بالحكام الذين لا يحكمون كتاب الله وسنة رسوله وأفتى ببطولان وتحريم كثير من الأوامر السلطانية وقرارات الولاة ..
فصدر مرسوم سلطاني عام ٧١٨ هـ بمنعه من الفتوى وحرمانه من التسديس .. وأدخله السجن مرة أخرى .. فظل به ٥ شهور و١٨ يوما ..

● ومع ذلك فعندما خرج ضرب بقرار السلطان عرض الحائط .. وبدألقاء درسه في منزله وفي المسجد .. ويفتي الناس في أمور دنياهم وأخراهم .. ويفتي أيضا في شرعية كل قرار إداري ..

● وطاردته وسائل التهديد والوعيد من الحكام وحاشيتهم .. ولكنه لم يصمت .. فصدر قرار آخر بإلقائه في السجن عام ٧٢٦ هـ ..

● وفي هذه المرة الأخيرة بدأ يتجه إلى تفسير القرآن الكريم .. وكان منهجه في التفسير الاعتماد على الآيات القرآنية .. وأن يعضها يفسر بعضها .. أن لم يجد في السنة .. أو في الاجتهاد ورأي الفقهاء السابقين .. وكان يفسر كل سورة على حدة .. وكان يبعث بتفسيره مع زواره إلى خارج السجن وكان هسلا التفسير يحدث أثارا بعيدة المدى في المجتمع الإسلامي الأمر الذي أدى بالحكام إلى حرمانه من القراءة والكتابة

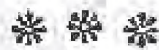
نقال عبارته الخالدة .. (ما يصنع أعدائي بي أنا جنتي
ويستاني في صدي أينما رحلت فهي معي لا تفارقني ..
أنا حبسي خلوة ، وقتلي شهادة وأخراجي من بلدي
سياحة ..

● وقد جمع خصومه تفسيره للتفسير أن الكريم
وأخفوه عن الناس .. وأخرقوه بعد ذلك أو ضاع وسط
الاضطرابات التي تعرض لها الولاة في هذه الفترة ..
ولم يبق لنا بمر التاريخ غير تفسير سورة النور ..
وتفسير آخر لبعض قصار السور ..

● وكان من أدعية الامام المشهورة « اللهم أعني على
ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .. كان يرددتها في
مسجته دائما ..

● ويقال أنه ترك حوالى ٥٠٠ مؤلف في الفقه
والتوحيد .. الخ

● وفي ليلة ٢٢ ذو القعدة ٧٢٨ هـ أعلن سجن
دمشق وفاة الفقيه ابن تيمية وهو يتلو قول الحق
تبارك وتعالى « إن المتقين في جنات ونهر في مقد صدق
عند ربك مقتدر » .



ولحن نقدم للقارئ الملم .. تفسير ابن تيمية
لسورة النور .. وفيها روحه ، وفكره ، وأسلوب
حياته .. وهما من أروع ما ترك لنا من أعمال أذ فيها
منهج حياة ..

وقد راجعناها .. ولم تكن في حاجة الى تفسير
كلماتها .. فهي واضحة والحمد لله .. ولكننا رتبنا
فصولها .. وجعلنا لكل فصل منها عنوانا يرشد الى
موضوعه ..

ولعلنا بذلك نكون قد قدمنا للقارئ الملم نموذجاً
للفكر الاسلامي المستنير ..

ولعلنا بذلك نكون - والحمد لله - قد ادينا واجبنا
نحو واحد من اكبر فقهاء ديننا ..

ولعلنا بذلك ايضاً نكون قد عسرنا عن تقديرنا
واكبارنا لهذا الفقيه العظيم - مهما كان الخلاف في
بعض الراى - ونسأله تعالى أن يظهر بين المسلمين دائماً
من يضاهيه ..

ربنا عليك توكلنا واليك اتينا وانت حسبننا ونعسم
الوكيل ..

صلاح عزام

مصر الجديدة في / شعبان ١٣٩١ هـ

أكتوبر ١٩٧١ م

مفاهيم عامة

قال تعالى : « سيرة أنزلناها وقرصناها وأنزلنا فيها آيات
 بينات لعلكم تذكرون » ففروضها بالبيّنات والتقدير لحدود الله التي
 من يتعدى خلالها إلى الحرام فقد ظلم نفسه ومن قرب من حرامها
 فقد اعتدى وتعدي الحدود ، وبين فيها فرض العقوبة للزانيين مائة
 جلدة وبين فيها فريضة الشهادة على الزنا وأنها أربع شهادات
 وكذلك فريضة شهادة المتلاعنين كل منهما يشهد أربع شهادات
 بالله توتى فيها عن تعدي حدوده في الفروج والأعراس والعورات
 وطاعة ذي السلطان سواء كان في منزله أو في ولايته ولا يخرج
 ولا يدخل إلا بإذنه : إذ الحقوق نوعان نوع الله فلا يتعدى حدوده
 ونوع للمباد فيه أمر فلا يفعل إلا بإذن المالك وليس لأحد أن يفعل
 شيئا في حق غيره إلا بإذن الله وإن لم يأذن المالك فإذن الله هو
 الأصل ويأذن المالك حيث أذن الله ، وجعل له الأذن فيه : ولهذا
 تضمنها الاستئذان في المساكن والمطاعم : والاستئذان في الأمور
 الجامعة كالصلاة والجهاد ونحوهما ووسطها بذكر النور الذي هو
 مادة كل خير وصلاح كل شيء وهو يشأ عن امتثال أمر الله واجتناب
 نهيه وعن الصبر على ذلك فإنه ضياء فإن حفظ الحدود بتقوى الله
 يجعل الله لصاحبه نورا كما قال تعالى (اتقوا الله وآمنوا برسوله
 يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويقفر لكم) .

فصد النور الظلمة ولهذا عقب ذكر النور وأعمال المؤمنين فيها
بأعمال الكفار وأهل البدع والضلال : فقال (والذين كفروا أعمالهم
كسراب بقيعة) الى قوله (ظلمات بعضها فوق بعض اذا أخرج يده
لم يكذ يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) وكذلك
الظلم ظلمات يوم القيامة وظلم العبد نفسه من الظلم فان للسيئة
ظلمة في القلب وسوادا في الوجه : ووهنا في البدن ، ونقصا في
الرزق : ونقصا في قلوب الخلق ، كما روى ذلك عن ابن عباس :
يوضح ذلك ان الله ضرب مثل ايمان المؤمنين بالنور ومثل أعمال
الكفار بالظلمة والايمان اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه : والكفر
اسم جامع لكل ما يبغضه الله وينهى عنه وان كان لا يكفر العبد اذا
كان معه أصل الايمان وبعض فروع الكفر من المعاصي كما لا يكون
مؤمننا اذا كان معه أصل الكفر وبعض فروع الايمان : ونقص البصر
اختصاص بالنور كما سنذكر ذلك ان شاء الله تعالى وقد روى
أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « ان العبد اذا
أدب تكلمت في قلبه نكتة سوداء فان ثاب وتزع واستغفر صقل
قلبه وان زاد زيد فيها حتى يملأ قلبه فذلك الزمان الذي ذكر الله
(كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) رواه الترمذي وصححه
وفي الصحيح انه قال « انه ليحان على قلبي والى الاستغفر الله في
اليوم مائة مرة » والذين حجاب رقيق أرق عن العيون فأخبر انه
يستغفر الله استغفارة يزيل الغين عن القلب فلا يصير نكتة سوداء
كما ان النكتة السوداء اذا أزيلت لا يصير ريبا : وقيل حذيفة ان
الايمان يبعو في القلب لظة بيضاء ، فكما ازداد العبد ايمانا ازداد
قلبه يابسا فلو كشفتم عن قلب المؤمن لرايتوه أبيض مشرقا وان
النفاق يبدو منه لظة سوداء فكما ازداد العبد نفاقا ازداد قلبه
سوادا فلو كشفتم عن قلب المنافق لوجدتموه سودا مریدا ، وقال
صلى الله عليه وسلم « ان النور اذا دخل القلب انشرح وانفسح
قيل فوئى لذلك من علامة يا رسول الله قل نعم التجاني عن دار
الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قيل نوره »

وفي خطبة الامام احمد التي كتبها في كتابه في الرد على الجهمية والزندقة قال الحمد لله الذي جعل في كل زمان نورا من الرسل بقايا من اهل العلم يدعون من ضل الى الهدى وبصبرون منهم على الاذى يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله اهل العمى فكم من قنيل لابليس قد احيوه وكم من ضال ناله حيران قد هدوه فما احسن اثرهم على الناس واقبح اثر التماس عليهم بنفون عن كتاب الله تحريف القائلين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين الذين عقدوا الوية البدعة واطلقوا عنان الفتنة فهم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب مجمعون على مفارقة الكتاب يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علم يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدهون جهال الناس بما يتساهلون عليهم نعوذ بالله من شبه المضلين .

قلت وقد قرن الله سبحانه في كتابه في غير موضع بين اهل الهدى والضلال وبين اهل الطاعة والمعصية بما يشبه هذا كقوله تعالى (وما يستوي الاعمي والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الخروار وما يستوي الاحياء ولا الاموات) وقال (مثل الفريقين كالاعمى والاصم والبصير والسميع) الآية . وقال في المنافقين (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) الآيات . وقال (الله ولي الذين آمنوا) الآية . وقال (كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور) والآيات في ذلك كثيرة .

وهكذا التور الذي يكون للمؤمن في الدنيا على حسن عمله واعتقاده يظهر في الآخرة كما قال تعالى (نورهم يسرى بين ايديهم وبأيمانهم) الآية : فذكر التور هنا عقيب امره بالتوبة كما ذكره في سورة النور عقيب امره بفض البصر وامره بالتوبة في قوله (وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون) وذكر ذلك بعد امره بحقوق الاهلين والازواج وما يتعلق بالنساء : وقال في سورة الحديد (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسرى نورهم بين ايديهم وبأيمانهم) الآيات الى قوله في المنافقين (ماواكم النار هي مولاكم وبئس المصير)

فأخبر سبحانه أن المنافقين يفقدون النور الذي كان المؤمنون
 يمشون به ويطلبون الاقتباس من نورهم فيحجبون عن ذلك بحجاب
 يضرب بينهم وبين المؤمنين كما أن المنافقين لما فقدوا النور في الدنيا
 كان (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله
 بنورهم وتركهم في ظلمات) فقوله تعالى (الزانية والزاني) الآية
 فأمر بعقوبتهما وعذابهما بحضور طائفة من المؤمنين وذلك بشهادته
 على نفسه أو بشهادة المؤمنين عليه لأن المعصية إذا كانت ظاهرة
 كانت عقوبتها ظاهرة كما جاء في الإنثر « من أذنب سرا فليتب سرا
 ومن أذنب علانية فليتب علانية » وليس من الستر الذي يحبه الله
 تعالى كما في الحديث « من ستر مسلما ستره الله » بل ذلك إذا
 ستر كان ذلك اقرا لتكر ظاهر : وفي الحديث « ان الخطيئة إذا
 خفيت لم تضر إلا صاحبها وإذا اعلنت فلم تنكر ضرت العامة » فإذا
 اعلنت عقوبتها بحسب العدل الممكن ولهذا لم يكن للمعلن بالسوء
 والفجور غيبة كما روي ذلك عن الحسن البصري وغيره لأنه لما أعلن
 ذلك استحق عقوبة المسلمين له وأدنى ذلك أن يدم عليه ليتزجر
 ويكف الناس عنه وعن مخالطته ولو لم يدم ويذكر لما فيه من
 الفجور والمعصية أو البدعة لاغتر به الناس وربما حمل بعضهم على
 أن يرتكب ما هو عليه ويزداد هو أيضا جرأة وفجورا ومعاصي فإذا
 ذكر بما فيه انكف وانكف غيره عن ذلك وعن صحبته ومخالطته :
 قال الحسن البصري أترعون عن ذكر الفاجر أذكروه بما فيه كي
 يحذره الناس وقد روي مرفوعا : والفجور اسم جامع لكل متجاهر
 بمعصية أو كلام قبيح يدل السامع له على فجور قلب قائله ولهذا
 كان مستحقا للهجر إذا أعلن بدعة أو معصية أو فجورا أو تهكما
 نوع تمزيق له فإذا أعلن السيئات أعلن هجره وإذا أسر أسر هجره
 إذ الهجرة هي الهجرة عن السيئات وهجرة السيئات وهجرة
 ما نهي الله عنه كما قال تعالى (والرجز فاهجر) وقال تعالى
 (واهجرهم هجرا جميلا) وقال (وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا

صعدتم آيات الله يكفر بها ويستنزها بها فلا تقصدوا معهم حتى
 ينخسروا في حديث غيره انكم اذا مثلهم) وقد روى عن عمر بن
 الخطاب ان ابنه عبد الرحمن لما شرب الخمر بمصر وذهب به اخوه
 الى امر مصر عمرو بن العاص ليجلده الحد جلده الحد سرا وكان
 الناس يجلدون علانية فبعث عمر بن الخطاب الى عمرو يشكر عليه
 ذلك ولم يعتد عمر بذلك الجلد حتى ارسل الى ابنه فاقدمه المدينة
 فجلده الحد علانية ولم ير الوجوب سقط بالحد الاول وعاش ابنه
 بعد ذلك مدة ثم مرض ومات ولم يمض من ذلك الجلد ولا ضربه بعد
 الموت كما يزعمه الكلابيون .

وقوله تعالى (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) الآية : تهى
 تعالى عما يأمر الشيطان في العقوبات عموما وفي امر القواحش
 خصوصا فان هذا الباب ملاء على المحبة والشهوة والرافة التي
 يريتها الشيطان بانعطاف القلوب على اهل القواحش والرافة بهم
 حتى يدخل كثير من الناس بسبب هذه الآفة في الديانة وقلبة الفيرة
 اذا رأى من يهوى بعض المتصلين به او يعاشره عشرة منكرا او رأى
 له محبة وميلا وصباية وعشقا ولو كان ولده رقى به وظن ان هذا
 من رحمة الخلق ولين الجانب بهم ومكارم الأخلاق وانما ذلك ديانة
 ومهانة وعدم دين وضعف ايمان واعانة على الاثم والعدوان وترك
 للتناهي عن الفحشاء والمنكر وتدخل النفس به في القيادة التي هي
 اعظم من الديانة كما دخلت عجوز السوء مع قومها في استحسان
 ما كانوا يتعاطونه من اتيان الذكران والمعاونة لهم على ذلك وكانت
 في الظاهر مسلمة على دين زوجها لوط وفي الباطن منافقة على دين
 قومها لا تقلى عملهم كما قلناه لوط فانه تنكره وناهى عنه وأبغضه :
 وكما فعل النسوة القواشي بمصر مع يوسف فانهن أعين امرأة العزيز
 على ما دعته اليه من فعل الفاحشة معها ولهذا قال (رب السجن
 احب الي مما يدعوني اليه) وذلك بعد قولهن (انا نراها في ضلال

مبين) ولا ريب أن محبة الفواحش مرض في القلب فإن الشهوة
 توجب السكر كما قال تعالى عن قوم لوط (أنهم لقى سكرتهم
 يعمهون) وفي الصحيحين واللفظ لمسلم من حديث عن أبي هريرة
 عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « العيان تزنيان وزناهما
 النظر » الحديث إلى آخره فكثير من الناس يكون مقصوده بعض
 هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث كالنظر والاستمتاع والمخاطبة
 ومنهم من يرتقى إلى اللمس والمباشرة ، ومنهم من يقبل وينظر وكل
 ذلك حرام وقد نهانا الله عز وجل أن نأخذنا بالزنا رافة بل نقيم
 عليهم الحد فكيف بما هو دون ذلك من هجر وأدب باطن ونهي
 وتوبيخ وغير ذلك بل ينبغي شتان الفاسقين وقلبيهم على ما يتمتع به
 الإنسان من أنواع الزنا المذكورة في هذا الحديث المتقدم وغير ذلك
 أن المحب العاشق وإن كان إنما يحب النظر والاستمتاع بصورة
 ذلك المحبوب وكلامه فليس دواؤه في أن يعطى نفسه محبوبها
 وشهوتها من ذلك لأنه مريض والمريض إذا شفي ما يضره أو جوع
 عن تناول الدواء الكريه فأخذنا رافة عليه حتى نمتعه من شربه
 فقد اعتاه على ما يضره أو يهلكه وعلى ترك ما ينفعه فيزداد سقمه
 فيهلك وهكذا المذنب العاشق ونحوه هو مريض فليس الرافة به
 والرحمة أن يمكن مما يهواه من المحرمات ولا يمان على ذلك ولا أن
 يمكن من ترك ما ينفعه من الطاعات التي تزيل مرضه قال تعالى
 (أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) أي فيها الشفاء وأكبر من
 ذلك بل الرافة به أن يمان على شرب الدواء وإن كان كريبها مثل
 الصلاة وما فيها من الأذكار والدعوات وأن يحصى عما يقوى داءه
 ويريد علقته وإن اشتهاه ولا يظن الفان أنه إذا حصل له استمتاع
 بمحرم يسكن بلاؤه بل ذلك يوجب له انزعاجا عظيما وزيادة في البلاء
 والمرض في المال فاته وإن سكن بلاؤه وهذا ما به عقيب استمتاعه
 أهقيه ذلك مرضا عظيما عسيرا لا يتخلص منه بل الواجب دفع أعظم
 الضررين باحتمال أدناهما قبل استحكام الداء الذي ترأس به إلى

الهلك والمطلب ومن المعلوم أن ألم العلاج النافع أيسر وأخف من ألم المرض الباقى .

وبهذا يتبين لك أن العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة يصلح الله بها مرض القلب وهي من رحمة الله بعباده وراقته بهم الداخلة في قوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرافة يجدها المريض فهو الذى أعان على عذابه وهلاكه وأن كان لا يريد إلا الخير إذ هو في ذلك جاهل أحقق كما يفعله بعض النساء والرجال الجهال بعرضاتهم ويمس يربونه من أولادهم وعلمائهم وغيرهم في ترك تأديبهم وعقوبتهم على ما ياتونه من الشر ويتركونه من الخير رافة بهم فيكون ذلك سبب فسادهم وعداوتهم وهلاكهم . ومن الناس من تأخذه الرافة بهم لمشاركته لهم في ذلك المرض وذوقه ما ذاقوه من قوة الشهوة وبرودة القلب والديانة فيترك ما أمر الله به من العقوبة وهو في ذلك من أظلم الناس وأدبهم في حق نفسه ونظرائه وهو بمنزلة جماعة من المرضى قد وصف لهم الطبيب ما ينفعهم فرجده كبيرهم مرارته فترك شربه ونهى عن سقيه للباقيين . ومنهم من تأخذه الرافة لكون أحد الزانيين محبوبا له أما أن يكون محبا لصورته وجماله بعضى أو غيره أو لقراءة بينهما أو لمودة أو لاحسانه إليه أو لما يرجو منه من الدنيا أو غير ذلك أو لما في العذاب من الألم الذى يوجب رقة القلب ويسألون انما يرحم الله من عباده الرحماء ويقول الأحمق المرحمون يرحمهم الرحمن أرحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء وغير ذلك وليس كما قال بل ذلك وضع الشيء في غير موضعه بل قد ورد في الحديث « لا يدخل الجنة ذيوث » فمن لم يكن ميقضا للقواحش كارهها لها ولاهنا ولا يغضب عند رؤيتها وسماعها لم يكن مريدا للعقوبة عليها فيبقى العذاب عليها يوجب ألم قلبه ، قال تعالى (ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله) الآية فإن دين الله هو طاعته وطاعة رسوله المبني على محبته ومحبة رسوله وأن يكون الله

ورسوله أحب اليه مما سواههما فان الرأفة والرحمة بحبيبه الله
ما لم تكن مضبوطة لدين الله .

وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « انما
يرحم الله من عباده الرحماء » وقال « لا يرحم الله من لا يرحم
الناس » وقال « من لا يرحم لا يرحم » وفي السنن « الراحمون
يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »
فهذه الرحمة حسنة مأمور بها امر ايجاب أو استحباب بخلاف
الرأفة في دين الله فانها منهي عنها والسيطان يريد من الانسان
الاسراف في أموره كلها فانه ان رآه مائلا الى الرحمة زين له الرحمة
حتى لا يبغض ما أبغضه الله ولا يفار لما يفار الله منه وان رآه مائلا
الى الشدة زين له الشدة في غير ذات الله حتى يترك من الاحسان
والبر واللين والصلة والرحمة ما يأمر به الله ورسوله ويتعدى في
الشدة فيزيده في اللوم والبغض والعقاب على ما يحبه الله ورسوله
فهذا يترك ما أمر الله به من الرحمة والاحسان وهو مذموم مذنب
في ذلك ويسرف فيها أمر الله به ورسوله من الشدة حتى يتعدى
الحدود وهو من اسرافه في أمره . فالأول مذنب والثاني مسرف
(والله لا يحب المسرفين) فليقولا جميعا (ربنا اغفر لنا ذنوبنا
واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القسوم الكافرين)
وقوله تعالى (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) فالؤمن بالله
واليوم الآخر يفعل ما يحبه الله ورسوله وينهى عما يبغضه الله
ورسوله ومن لم يؤمن بالله واليوم الآخر فانه يتبع هواه فتارة
تغلب عليه الرأفة هوى وتارة تغلب عليه الشدة هوى فيتبع ما يهواه
في الجانبين بغير هدى من الله ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى
من الله فان الزنا من الكبائر ، واما النظر والمباشرة فاللهم منها معفوون
باجتناب الكبائر فان أصر على النظر أو على المباشرة صار كبيرة وقلة
يكون الاصرار على ذلك أعظم من قليل الفواحش فان دوام النظر
بالشهوة وما يتصل به من العشق والمباشرة والمباشرة قد يكون أعظم

بكثير من قسامونا لا اصرار عليه ولهذا قال الفقهاء في الشاهد العدل
 ان لا يأتي كبيرة ولا يصير على صغيرة: وفي الحديث المرفوع « لا صغيرة
 مع اصرار ولا كبيرة مع استخفاف » بل قد ينتهي النظر والمباشرة
 بالرجل الى الشرك كما قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون
 الله اندادا يحبونهم كحب الله) ولهذا لا يكون عشق الصور الا من
 ضعف محبة الله وضعف الايمان والله تعالى انما ذكره في القرآن
 من امرأة العزيز المشركة وعن قوم لوط المشركين والعاشق التميمي
 يصير عبدا لمشوقه منقادا له اسير القلب له .

وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الحدود ان حالت
 فيقاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فيما رواه ابو داود
 عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حالت
 شفتاه دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في امره ومن خاصم
 في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتى يخرج ومن قال في
 مسلم ما ليس فيه حبس في ردغة الخيل حتى يخرج منها قال «
 فالشافع في تعطيل الحدود مضاد الله في امره لان الله امر بالعقوبة
 على تعدي الحدود فلا يجوز ان تأخذ المؤمن راقعة باهل البسدة
 والفجور والمأسي ، الظلمة .

وجماع ذلك كله فيما وصف الله به المؤمنين حيث قال (اذلة
 على المؤمنين اعزة على الكافرين) وقال (أشداء على الكفار رحماء
 بينهم) فان هذه الكبائر كلها من شعب الكفر ولم يكن المسلم كافرا
 بمجرد ارتكاب كبيرة ولكنه يزول عنه اسم الايمان الواجب كما في
 الصحاح عنه صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني حين يزني وهو
 مؤمن » الحديث الى آخره ففيهم من نقص الايمان ما يوجب زوال
 الرافعة والرحمة بهم واستحقاق تلك الشبهة من الشدة بقدر

ما فيها ولا منافاة بين أن يكون الشخص الواحد يرحم ويحب من وجه ويعذب ويفض من وجه ويثاب من وجه ويعاقب من وجه فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن الشخص الواحد يجتمع فيه الأمران خلافا لما يزعمه الخوارج ونحوهم من المتولة فإن عندهم أن من استحق العذاب من أهل القبلة لا يخرج عن النار فأوجبوا خلود أهل التوحيد وقال من استحق العذاب لا يستحق الثواب ولهذا جاء في السنة أن من أقيم عليه الحد والعقوبات ولم يأخذ المؤمنين به رافة أن يرحم من وجه آخر فيحسن إليه ويدعى له وهذا الجانب أغلب في الشريعة كما أن الغالب في صفة الرب سبحانه كما في الصحيحين « أن الله كتب كتابا فهو موضح عنده فسوق العرش أن رحمتي تغلب غضبي » وفي رواية « سبقت غضبي » وقال (نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وإن عذابي هو العذاب الأليم) وقال (اعلموا أن الله شديد العقاب وإن الله غفور رحيم) فجعل الرحمة صفة له مذكورة في أسمائه الحسنى : وأما العذاب والعقاب فجعلهما من مفعولاته غير مذكورين في أسمائه .

ومن هذا الباب ما أمر الله به من الغلظة على الكفار والمنافقين فقال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وقال (لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) والآيات إلى قوله في قصة إبراهيم (حتى تؤمنوا بالله وحده) وكذلك آخر المجادلة : وقد ثبت في صحيح مسلم عن الحسن بن حطان بن عبد الله عن عبيدة بن الصامت « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « خلدوا عني قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والشيب بالشيب جلد مائة والرجم » وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد أنه صلى الله عليه وسلم « اخنصم إليه رجلان فقال أحدهما يا رسول الله اقض بيننا بكتاب الله والذين

لي ان ابني كان عسيفا على هذا والله زني بامرأة فافتديت منه
 بمائة شاة ووليدة واتى سألت اهل العلم فقالوا على ابنك جلد
 مائة وتغريب عام فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تقضين بينكما
 يكتب الله اما المائة شاة والوليدة فرد عليك وعلى ابنك جلد مائة
 وتغريب عام واغديا آتسي على امرأة هذا فان اعترفت فارجمها
 فاعترفت فارجمها : فهذه المرأة احد من رجمها النبي صلى الله
 عليه وسلم : ورجم ايضا اليهوديين على باب مسجده ورجم ماعز
 بن مالك ورجم العامرية ورجم غير هؤلاء . وهذا الحديث يوافق
 ما في الآية من بيان السبيل الذي جعله الله لهم وهو جلد مائة
 وتغريب عام في اليكر وفي التيبه الرجم لكن الذي في هذا الحديث
 هو الجلد والنفي لليكر من الرجال ، واما الآية ففيهما ذكر الامساك
 في البيوت للنساء خاصة : ومن فقهاء العراق من لا يوجب من الجلد
 تغريبا ، ومنهم من يفرق بين الرجل والمرأة كما أن اكثرهم لا يوجبون
 مع الرجم جلد مائة ومنهم من يوجبهما جميعا كما فعل على بسراحة
 الهمدانية حيث جلدتها ثم رجمها وقال « جلدتها بكتاب الله ورجمها
 بسنة نبيه » رواد البخاري ، وعن أحمد في ذلك روايتان وهو
 سبحانه ذكر في سورة النساء ما يختص بالنساء من العقوبة بالامساك
 في البيوت الى المات او الى جعل السبيل ثم ذكر ما يهم الصنفين
 فقال (واللذان يأتيانها منكم فآذوهما) فان الأذى يتناول الصنفين
 بما لا يجب مثله في الرجل : ولهذا حصنت بالاحتجاب وترك ابداء
 الرجال فإنه لم يأسر فيهم بالعيس لأن المرأة يجب أن تغطى وتحفظ
 بما لا يجب مثله في الرجل : ولهذا حصنت بالاحتجاب وترك ابداء
 الزينة وترك التبرج فيجب في حقها الاستتار بالنسيان والبيوت
 مالا يجب في حق الرجل لأن ظهور النساء سبب الفتنة والرجال
 قوامون عليهن » .

وقوله (فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) دل على شيئين :
 على أن نصائب الشهادة على الفاحشة أربعة وعلى أن الشهداء بها

على نسائنا يجب أن يكونوا متافلا تقبل شهادة الكفار على المسلمين وهذا لانزاع فيه والما النزاع في قبول شهادة الكفار بعضهم على بعض وفيه قولان عند أحمد أشهرهما عنده وعند أصحابه أنها لا تقبل كماله مالك والشافعي والثانية أنها تقبل اختارها أبو الخطاب من أصحاب أحمد وهو قول أبي حنيفة وهو أنسبه بالكتاب والسنة : وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تجوز شهادة أهل ملة على أهل ملة إلا امتى فإن شهادتهم تجوز على من سواهم » فإنه لم ينف شهادة أهل الملة الواحدة بعضها على بعض بل مفهوم ذلك جواز شهادة أهل الملة الواحدة بعضها على بعض ولكن فيه بيان أن المؤمنين تقبل شهادتهم على من سواهم لقوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وفي آخر الحج مثلها : وقد ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم « قال يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيدعى قومه فيقال هل بلغكم فيقولون ما جاءنا من بشر ولا نذير فيقال لنوح من يشهد لك فيقول محمد وأمته فيؤتى بهم فتشهدون أنه بلغ » وكذلك في الصحيحين من حديث أنس في شهادتهم على تلك الجنازتين وأنهم اتوا على أحدهما خيراً وعلى الأخرى شراً فقال « أنتم شهداء الله في أرضه » الحديث .

ولهذا لما كان أهل السنة والجماعة الذين حضوا الإسلام ولم يشوبوه بغيره كانت شهادتهم مقبولة على سائر فرق الأمة بخلاف أهل البدع والأهواء كالخوارج والرواحض فإن بينهم من العداوة والظلم ما يخرجهم عن كمال هذه الحقيقة التي جعلها الله لأهل السنة قال النبي صلى الله عليه وسلم « يحل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » وقد استدلل من جاز شهادة أهل السنة بعضهم على

بعض بهذه الآية التي في المائدة وهي قوله (يا أيها الذين آمنوا
شهادة بيشكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل
منكم أو آخران من غيركم) الآية ثم قال من أخذ بظاهر هذه الآية
من أهل الكوفة دلت هذه الآية على قبول شهادة أهل الذمة على
المسلمين فيكون في ذلك تنبيه ودلالة على قبول شهادة بعضهم على
بعض بطريق الأولى ثم نسخ الظاهر لا يوجب نسخ الفحوى
والتنبيه ؛ وهذه الآية الدالة على تخصيص الإمام أحمد وغيره من
أئمة الحديث الموافقين للسلف في العمل بهذه الآية وما يوافقها من
الحديث أوجه وأقوى فإن مذهبهم قبول شهادة أهل الذمة على
المسلمين في الوصية في السفر لأنه موضح ضرورة فإذا جازت
شهادتهم لغيرهم فعلى بعضهم أجوز وأجوز ولهذا يجوز في الشهادة
للضرورة مالا يجوز في غيرها كما تقبل شهادة النساء فيما لا يطلع
عليه الرجال حتى يرضي أحمد على قبول شهادتهن في الحدود التي
تكون في مجامعهن الخاصة مثل الحمامات والعمران وتحسب ذلك
فالكفار الذين لا يختلط بهم المسلمون أولى أن تقبل شهادة بعضهم
على بعض إذا حكمنا بينهم والله أمرنا أن نحكم بينهم والنبى صلى
الله عليه وسلم رجم الزانيين من اليهود من غير سماع أقرار منهما
ولا شهادة مسلم عليهما ولولا قبول شهادة بعضهم على بعض لم
يجز ذلك والله أعلم .

ثم أن في تولي مال بعضهم بعضا نزاع فهل يتولى الكافر العدل
في دينه مال ولده الكافر على قولين في مذهب أحمد وغيره والصواب
المقطوع به أن بعضهم أولى ببعض وقد مضت سنة النبى صلى الله
عليه وسلم بذلك وسنة خلفائه . وقوله تعالى (فأذوهما) أمر

بالأذى مطلقا ولم يذكر كبريته وصفته ولا قدره بل ذكر أنه يجب
 أيدأؤهما . ولفظ الأذى يستعمل في الأقوال كثيرا كقوله (أن
 يضر وكم إلا أذى) وقوله (أن الذين يؤذون الله ورسوله) . أن
 الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) (ومنهم الذين
 يؤذون النبي) وقول النبي صلى الله عليه وسلم « لا أحد أصبر على
 أذى سمعه من الله » ونظائر ذلك كثيرة ذكرناها في كتاب الصارم
 المسلول . وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم في شارب الخمر
 « عاقبوه وآذوه » وقال (فإن تابا وإصلاحا فاعرضوا عنهما)
 والأعراض هو الإمالة عن الإبداء فالله سبحانه لا يزال يؤذى وينهى
 ويوعظ ويوبخ ويغفل له في الكلام إلى أن يتوب ويعطى الله . وأذن
 ذلك هجره فلا يكلم بالكلام الطيب كما هجر النبي صلى الله عليه
 وسلم والمؤمنون الثلاثة الذين خلفوا حتى ظهرت توبتهم وصلاحهم
 وهذه آية محكمة لا تسخ فيها فمن أتى الفاحشة من الرجال
 والنساء فإنه يجب أيدأؤه بالكلام الزاجر له عن المعصية إلى أن
 يتوب وليس ذلك محدودا بقدر ولا صفة إلا ما يكون زاجرا له
 داعيا إلى حصول المقصود وهو توبته وصلاحه وقد خلقه تعالى
 على هذين الأمرين التوبة والإصلاح فإذا لم يوجد فلا يجوز أن
 يكون الأمر بالأعراض موجودا فيؤذى والآية دلت على وجوب الإبداء
 اللذان يأتیان الفاحشة منا ودلت على وجوب الأعراض عن الأذى
 في حق من تاب وأصلح فأما من تاب وترك فعل الفاحشة ولم يصح
 فقد تنازع الفقهاء هل يشترط في قبول التوبة صلاح الفعل على
 قولين في مذهب أحمد وغيره وهذه تشبه قوله تعالى (فإذا انسلف
 الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) إلى قوله
 (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) فأمر
 بقتالهم ثم علق تخليتهم سبيلهم على التوبة والعمل الصالح وهو
 إقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع أنهم إذا تكلموا بالشهادتين وجب
 الكف عنهم ثم إن صلوا وزكوا والا موقوفوا بعد ذلك على ترك الفعل
 لأن الشارح في التوبة شرع الكف عن أذاه ويكون الأمر فيه موقوفا

على النمام وكذلك التائب من الفاحشة يشرع الكف عن اذاه الى
ان يصلح فان اصلح وجب الاعراض عن اذاه وان لم يصلح لم يجب
الكف عن اذاه بل يجوز او يجب اذاه .

وهذه الآية مما يستدل بها على التعزير بالأذى والأذى وان كان
يستعمل كثيرا في الكلام في مركب الفاحشة فليس هو مختصا به
كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن يصدق في القبلة « انك آذيت
الله ورسوله » وكذلك قال في حق فاطمة ابنته « يرييني ما رايها
ويؤذيي ما آذاها » وكذلك قال لمن أكل الثوم والبصل « ان الملائكة
تنأذى مما يتأذى منه بنو آدم » وقال لصاحب السهام « خذ
بنصاها لتلا تؤذى احدا من المسلمين » وقد قال تعالى (فاذا حلعتهم
فانتشروا ولا مستألسين لحديث ان ذلكم كان يؤذى النبي) .

وقوله تعالى (فان تابا واصلحا) هل يكون من توبته اعتراقه
بالذنب فاذا ثبت الذنب باقراره فوجد اقراره وكذب الشهود على
اقراره او ثبت بشهادة شهود هل بعد ذلك تابا فيه نزاع فذكر
الامام احمد انه لا توبة لمن جحد وانما التوبة لمن اقر وتاب واستدل
بقصة علي بن ابي طالب انه اتى بجماعة ممن شهد عليهم بالزندقة
فاعترف منهم ناس فتابوا فقبل توبتهم وجحد منهم جماعة فقتلهم
وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة « ان كنت الميث بدئ
فاستغفري الله وتوبى اليه فان الميث اذا اعترف بذنبه ثم تاب
حباب الله عليه » رواه البخاري فمن اذنب سرا فليتب سرا وليس
عليه ان يظهر ذنبه كما في الحديث « من ابتلى بشيء من عسده
القاذورات فليستر بستر الله فانه من يبد لنا صفتحه نقم عليه
كتاب الله » وفي الصحيح « كل امس معاق الا المجاهرين وان من
المجاهرة ان يبيت الرجل على الذنب قد ستره الله عليه فيكشف
ستر الله عنه » فاذا ظهر من العبد الذنب فلا بد من ظهور التوبة

ومع الجحود لا تظهر التوبة فان الجاحد يزعم انه غير مذنب ولهذا
كان السلف يستعملون ذلك فيمن اظهر بدعة او فجورا فان هذا
اظهر حال الضالين وهذا اظهر حال المغضوب عليهم : ومن اذاه
منعه مع القدرة من الإمامة والحكم والفتيا والرواية والشهادة
واما بدون القدرة فليفعل المقدور عليه .

وقوله (والندان بآياتها منكم فأذوهما) فأمر بإيذائهما ولم
يعلق ذلك على استشهادهن أربعة كما علق ذلك في حق النساء
وامساكنهن في البيوت ولم يأمر به هنا كما أمر به هناك وليس هذا
عن باب حمل المطلق على المقيد لان ذلك لا بد أن يكون الحكم واحدا
مثل الاعتقاد فاذا كان الحكم متفقا في الجنس دون النوع كإطلاق
الأبدي في التيمم وتقيدها في الوضوء الى المرافق . وإطلاق ستين
مسكينا في الإطعام وتقيد الاعتقاد بالإيمان مع أن كلاهما عبادة
مالية يراد بها نفع الخلق وفي ذلك نزاع بين العلماء ولم يحصل
المسلمون من الصحابة والتابعين المطلق على المقيد في قوله (وامهات
نساءكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن)
الآية : وقوله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد
سلف) قال الصحابة والتابعون وسائر الأمة الدين الشرط في
الربائب خاصة وقالوا أبهوا ما أبههم الله والمبهم هو المطلق والشروط
فيه هو الوقت المقيد فامهات النساء وحلائل الآباء والأبناء يحرمون
بالعقد والربائب لا يحرمون الا اذا دخل بامهاتهن لكن تنازعوا هل
الموت كالدخول على قولين في مذهب أحمد وذلك ان الحكم مختلف
والقيد ليس متساويا في الاعيان فان تحريم جنس ليس مثل تحريم
جنس آخر يخالفه كما أن تحريم الدم والميتة ولحم الخنزير أن
يكون مسفوحا وهنا القيد كون الربيبة مدخولا بأمها والدخول بالأم
لا يوجد مثله في الحليلتين وأم المرأة إذ الدخول في الحليلة بهما
نفسها وفي أم المرأة بينتها : وكذلك المسلمون لم يحملوا المطلق على

القيد في نصب الشهادة بل لما ذكر الله في آية الدين (رجلين أو رجلا وامرأتين) وفي الرجمة (رجلين) اتروا كلا منهما على حاله لأن سبب الحكم مختلف وهو المال والبضع واختلاف السبب يؤثر في نصاب الشهادة وكما في إقامة الحد في الفاحشة وفي القذف بها اعتبر فيه أربعة شهداء فلا يقاس بذلك عقود الإيمان والإيضاع : وذكر في حد القذف ثلاثة أحكام جلد ثمانين وترك قبول شهادتهم ابتداء وانهم قاسقون (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) وأن التوبة لا ترفع الجلد إذا ظلمه المذنب وترفع الفسق فلا تردد وهل ترفع المنع من قبول الشهادة فأكثر العلماء قالوا ترفعه وإذا اشتهر عن شخص الفاحشة بين الناس لم يرحم لما ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه لما ذكر حديث الملائكة وقول النبي صلى الله عليه وسلم « أن جاءت به يشبه الزوج فقد كذب عليها وإن جاءت به يشبه الرجل الذي رماها به فقد صدق عليها » فجاءت به على السمك المكروه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لولا الإيمان لكان لي ولها شأن » فقيل لابن عباس أهذه التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كنت راجما أحدا بغير بينة لرجعتها » فقال لا تلك امرأة كانت تعلن السوء في الإسلام فقد أخبر أنه لا يرحم أحدا إلا ببينة ولو ظهر عن الشخص السوء .

ودل هذا الحديث على أن الشبه له تأثير في ذلك وإن لم تكن بينة وكذلك ثبت عنه أنه لما مر عليه بترك الجنابة فأتوا عليه خيرا إلى آخره قال أنتم شهداء الله في أرضه : وفي المسند عنه أنه قال « يوشك أن تعلموا أهل الجنة من أهل النار قيل يا رسول الله وبم ذلك قال بالثناء الحسن والثناء السيء » فقد جعل الاستفاضة حجة وبينية في هذه الأحكام ولم يجعل حجة في الرجم . وكذلك تقبل شهادة أهل الكتاب على المسلمين في الوصية في السفر عند أحد : وكذلك شهادة الصبيان في الجراح إذا أدوها قبل التفريق في إحدى الروايتين وإذا شهد شاهد أنه رأى الرجل والمرأة والنسبي

في لحاف أو في بيت مرحاض أو رأهما مجردين أو محتولين السراويل
ويوجد مع ذلك ما يدل على ذلك من وجود اللحاف قد خرج عن
العادة إلى مكانهما أو يكون مع أحدهما أو معهما ضوء قد أظهره
فراه فإطفاءه فإن إطفاءه دليل على استخفافه بهما يفعل فإذا لم يكن
ما يستخفى به إلا ما شهد به الشاهد كان ذلك من أعظم البيان على
ما شهد به .

فيما الباب باب عظيم النفع في الدين وهو مما جاءت به الشريعة
التي أهملها كثير من القضاة والمتفقهة زاعمين أنه لا يعاقب أحد
إلا بشهود عاينوا أو أقرار مسموع وهذا خلاف ما تواترت به السنة
وسنة الخلفاء الراشدين وخلاف ما قطرت عليه القلوب التي تعرف
المعروف وتكر المنكر . ويعلم العقلاء أن مثل هذا لا تأباه سياسة
عادلة فضلا عن الشريعة الكاملة ويدل عليه قوله تعالى (يا أيها
الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة)
ففي الآية دلالات أحدها قوله (أن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)
فأمر بالتبين عند مجيء كل فاسق بكل نبأ يل من الأنبياء ما ينهي
فيه عن التبين . ومنها ما يباح فيه ترك التبين ومن الأنبياء ما يتضمن
العقوبة لبعض الناس لأنه علل الأمر بأنه إذا جاءنا فاسق بشئ خشيعة
أن نصيب قوما بجهالة فلو كان كل من أصيب بنبأ كذلك لم يحصل
الفرق بين العدل والفسق بل هذه الأدلة واضحة على أن الإصانة
بنبأ العدل الواحد لا ينهي عنها مطلقا وذلك يدل على قبول شهادة
العدل الواحد في جنس العقوبات فإن سببا نزول الآية يدل على
ذلك فأنها نزلت في أخبار واحد بأن قوما قد حاربوا بالردة
أو نقض العهد .

وقيه أيضا أنه متى اقترن بخير الفاسق دليل آخر يدل على
صدقه فقد استبان الأمر وزال الأمر بالتثبت فتجاوز إصابة القوم
وعقوبتهم بخير الفاسق مع قرينة إذا تبين بهما الأمور فكيف خبر
الواحد العدل مع دلالة أخرى . ولهذا كان أصح القولين أن مثل

هذا لوث في باب القسامة فإذا انضاف إيمان القسمين صار ذلك
 بينة تبيح دم المقسم عليه ، وقوله (أن تصيبوا قوما بجهالة)
 فجمال المحذور هو الأصابة لقوم بلا علم فمتى أصيبوا بعلم زال
 المحذور هذا هو المايط الذي يدل عليه القرآن كما قال (إلا من
 شهد بالحق وهم يعلمون) وقال (ولا تقف ما ليس لك به علم)
 وأيضاً فإنه علل ذلك بخوف الندم والندم إنما يحصل على عقوبة
 البريء من الذنب كما في سنن أبي داود « أذروا الحدود بالشبهات
 فإن الإمام أن يخطيء في العفو خير من أن يخطيء في العقوبة » فإذا
 دار الأمر بين أن يخطيء فيعاقب بريئاً أو يخطيء فيعفو عن مذنب
 كان هذا الخطأ خير الخطأين أما إذا حصل عنده علم أنه لم يعاقب
 إلا مذنباً فإنه لا يندم ولا يكون فيه خطأ والله أعلم .

وقد ذكر الشافعي وأحمد أن التقريب جاء في السنة في
 موضعين أحدهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في الزاني إذا
 لم يحصن « جلد مائة وتغريب عام » والثاني نفى المختنن فيما
 روته أم سلمة « أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندهما
 مختنن وهو يقول لعبد الله أخيها أن فتح الله لك الطائف غداً أدلك
 على ابنة خيلان فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقال النبي صلى الله
 عليه وسلم أخرجوهم من بيوتكم » رواه الجماعة إلا الترمذي ؛ وفي
 رواية في الصحيح « لا يدخلن هؤلاء عليكم » وفي رواية « أرى هذا
 يعرف مثل هذا لا يدخلن عليكم بعد اليوم » قال ابن جريج المختنن
 هو هيت وهكذا ذكره غيره ؛ وقد قيل أنه هنب ؛ وزعم بعضهم
 أنه ماتع وقيل هو إن ؛ وروى الجماعة إلا مسلماً « أن النبي صلى الله
 عليه وسلم لعن المختنن من الرجال والمرجلات من النساء وقال
 أخرجوهم من بيوتكم وأخرجوا فلانا وفلانا يعني المختنن » وقد
 ذكر بعضهم أنهم كانوا ثلاثة بهم هيت وماتع على عهد رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ولم يكونوا يرمون بالفاحشة الكبرى إنما كان
 تخنيثهم وتانيثهم لينا في القول وخضاباً في الأيدي والأرجل كخضاب
 النساء ولعناً كليهن .

وفي سنن أبي داود عن أبي يسار القرشي عن أبي هاشم عن أبي هريرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بهتخت وقد حُصيه وجليه ويديه بالحناء فقال ما بال هذا فقيل يا رسول الله يشبه بالنساء فأمر به فنفي إلى النقيع فقيل يا رسول الله ألا تقتله فقال أتى نهيت عن قتل المصلين » قال أبو أسامة (هو) حماد بن أسامة والنقيع ناحية تبعد عن المدينة وليس بالنقيع وقيل أنه الذي حماه النبي صلى الله عليه وسلم لآيل الصدقة ثم حماه عمر وهو على عشرين فرسخاً من المدينة وقيل عشرين ميلاً . ونقيع الخضعات موضع آخر قرب المدينة وقيل هو الذي حماه عمر والنقيع موضع يستقم فيه الماء كما في الحديث « أول جمعة جمعت بالمدينة في نقيع الخضعات » .

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر بإخراج مثل هؤلاء من البيوت فمعلوم أن الذي يمكن الرجال من نفسه والاستمتاع به وبما يشاهدونه من محاسنه وقيل الفاحشة الكبرى به شر من هؤلاء وهو أحق بالنفي من بين أظهر المسلمين وإخراجه عنهم فإن المخت في إفساد الرجال والنساء لأنه إذا تشبه بالنساء فقد تعاشره النساء ويتعلمن منه وهو رجل فيفسدنه ولأن الرجال إذا مالوا إليه فقد يعرضون عن النساء ولأن المرأة إذا رأت الرجل يتختت فقد تترجل هي وتتشبه بالرجال فتعاشر الصنفين وقد اختار هي مجامعة النساء كما يختار هو مجامعة الرجال . وأما إفساده للرجال فهو أن يمكنهم من الفعل به كما يفعل بالنساء بمشاهدته ومباشرته وعشقه فإذا أخرج من بين الناس وسافر إلى بلد آخر ساكن فيه الناس ووجد هناك من يفعل به الفاحشة فهذا يكون نفيه بحجسه في مكان واحد ليس معه فيه غيره وإن خيف خروج فاته يقيد إذ هذا هو معنى نفيه وإخراجه من بين الناس .

ولهذا تنازع العلماء في نفي المحارب من الأرض هل هو طرده بحيث لا يأوى في بلد أو حيسه أو بحسبه ما يراه الإمام من هذا

وهذا ففي مذهب أحمد ثلاث روايات الثالثة أعدل وأحسن فإن فيه بحيث لا يأوى في بلد لا يمكن لتفرق الرعية واختلاف همهم بل قد يكون بطرده يقطع الطريق وحبسه قد لا يمكن لأنه يحتاج إلى مؤنة إلى طعام وشراب وحارس ولا ريب أن النفي أسهل أن يمكن . وقد روى « أن هينا لما استكنى الجوع امره النبي صلى الله عليه وسلم أن يدخل المدينة من الجمعة إلى الجمعة يسأل ما بقيته إلى الجمعة الأخرى » ومعنوم أن قوله (أو ينفوا من الأرض) لا يتضمن نفيه من جميع الأرض وإنما هو نفيه من بين الناس وهذا حاصل بطرده وحبسه وهذا الذي جاءت به الشريعة من النفي هو نوع من الهجرة أي هجرة وليس هذا كنفي الثلاثة الذين خلفوا ولا هجرة كهجرهم فإنه منع الناس من مخالطتهم ومخاطبتهم حتى أزواجهم ولم يمنعهم من مشاهدة الناس وحضور مجامعهم في الصلاة وغيرها وهذا من النفي المشروع فإن النفي المشروع مجموع من الأمرين وذلك أن الله خلق آدميين محتاجين إلى معاونة بعضهم بعضا على مصلحة دينهم ودنياهم فمن كان بمخالطته للناس لا يحصل منه عون على الدين بل يفسدهم ويضرهم في دينهم ودنياهم استحق الإخراج من بينهم وذلك أنه مضر بلا مصلحة فإن مخالطته لهم فيها فسادهم وفساد أولادهم فإن الضبي إذا رأى صبيا مثله يفعل شيئا تشبه به وسار بسيرته مع الفساق فإن الاجتماع بالزناة واللوطيين فيه أعظم الفساد والضرر على النساء والصبيان والرجال فيجب أن يعاقب اللوطي والزاني بما فيه تفرقه وإبعاده .

وجماع الهجرة هي هجرة السيئات وأهلها وكذلك هجران الدعوة إلى البدع وهجران الفساق وهجران من يخالط هؤلاء كلهم أو يعاونهم وكذلك من يترك الجهاد الذي لا مصلحة لهم بدونه فإنه يعاقب بهجرهم له لما لم يعاونهم على البر والتقوى فالزناة واللوطية وتارك الجهاد وأهل البدع وشربة الخمر فهؤلاء كلهم ومخالطتهم

مضرة على دين الاسلام وليس فيهم معاونة لا على بر ولا تقوى فمن لم يهجرهم كان تاركا للمأمر ذاعلا للمحظور فهذا ترك المأمور من الاجتماع وذلك فعل المحظور منه فعوقب كل منهما بما يناسب جرمه فان العقوبة انما تكون على ترك مأمور أو فعل محظور كما قال الفقهاء انما يشرح التعزير في معصية ليس فيها حد فان كان فيها كفارة فعلى قولين في مذهب أحمد وغيره ، قال وما جاءت به الشريعة من الأمور والعقوبات والكفارات وغير ذلك فانه يفعل منه بحسب الاستطاعة فاذا لم يقدر المسلم على جهاد جميع المشركين فانه يجاهد من يقدر على جهاده وكذلك اذا لم يقدر على عقوبة جميع المعتدين فانه يعاقب من يقدر على عقوبته فاذا لم يمكن التقى والحبس عن جميع الناس كان التقى والحبس على حسب القدرة مثل ان يحبس بدار لا يباشر الا اهلها لا يخرج منها أو أن لا يباشر الا شخصا أو شخصين فهذا هو الممكن فيكون هو المأمور به وأن امكن ان يجعل في مكان قد قل فيه القبيح ولا يعدم بالكلية كان ذلك هو المأمور به فان الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فالقليل من الخير خير من تركه ودفع بعض الشر خير من تركه كله وكذلك المرأة المتشبهة بالرجال تحبس شبيها بحالها اذا زنت سواء كانت بكرا أو ثيبا فان جنس الحبس مما شرع في جنس الفاحشة .

ومما يدخل في هذا أن عمر بن الخطاب نفي نصر بن حجاج من المدينة ومن وطنه إلى البصرة لما سمع تشبيب النساء به وتشبهه بهن وكان أولا قد أمر بأخذ شعره ليؤزل جماله الذي كان يفتن به النساء فلما رآه بعد ذلك من أحسن الناس وجنتين غمه ذلك فنفاه إلى البصرة فهذا لم يصدر منه ذنب ولا فاحشة يعاقب عليها لكن كان في النساء من يفتن به فامر بإزالة جماله الفاني فان انتقله من وطنه مما يضعف همته وبدنه ويعلم أنه معاقب وهذا من باب التفريق بين الذين يخاف عليهم الفاحشة والعشيق قبل وقومه

وليس من باب العاقبة وقد كان عمر ينقى في الخمر الى خير زيادة
في عقوبة شاربها .

ومن اقوى ما يهيج الفاحشة اشداد اشعار الدين في قلوبهم
مرض من العشق ومحبة الفواحش ومقدماتها بالاصوات المطربة
فان المعنى اذا غنى بذلك حرك القلوب المريضة الى محبة الفواحش
فعندها يهيج مرضه ويتوى بلاؤه وان كان في عافية من ذلك جعل
فيه مرضا كما قال بعض السلف الفناء رقية الزنا ، ورقية الحية
هي تستخرج بها الحية من جحرها ورقية العين والحمة هي
ما تستخرج به العافية ورقية الزنا هو ما يدعو الى الزنا ويخرج
من الرجل هذا الامر القبيح والفعل الخبيث كما ان الخمر ام
الخيانت قال ابن مسعود « الفناء يثبت الشقاق في القلب كما ينبت
الماء البقل » وقال تعالى لايليس (واستفزز من استطعت منهم
بصوتك واجلب عليهم بخیلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد)
واستفزازهم ابانهم بصوته يكون بالفناء كما قال من قال من السلف
وبغیره من الاصوات كالنباحة وغير ذلك فان هذه الاصوات كلها
توجب انزعاج القلب والنفس الخبيثة الى ذلك وتوجب حركتها
السريعة واضطرابها حتى يبقى الشيطان يعب بهؤلاء اعظم من لعب
الصبيان بالكرة والنفس متحركة فان سكنت فبأذن الله والا فهي
لا تزال متحركة : وشبهها بعضهم بكرة على مستوى املس لا تزال
تتحرك عليه وفي الحديث المرفوع « القلب اشد تقلبا من القدر اذا
استجمعت غلبانا » وفي الحديث الآخر « مثل القلب مثل ريشة
يقلد من الارض تحركها الريح » وفي صحيح البخاري عن سالم
ابن عمر « قال كانت يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ومقلب
القلوب » وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو انه سمع النبي
صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم مصرف القلوب اعرف قلوبنا الى
طاعتك » وفي الترمذي عن ابي سفيان « قال كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يكثر ان يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك

قال فقلت يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا
 قال نعم القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء .
 وقوله تعالى (الزاني لا ينكح الزانية أو مشركة والزانية
 لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنین) لما أمر الله تعالى
 بمقربة الزانيين حرم مناهجتهما على المؤمنین هجرأ لهما ولما مضمما
 من الذنوب والسيئات كما قال تعالى (والرجز فاهجر) وجعل
 مجالس فاهل ذلك المنكر مثله بقوله تعالى (انكم اذا مثلهم) وهو
 زوج له قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وازواجهم) أي عشاءهم
 وقرناءهم وأشباههم ونظراءهم : ولهذا يقال المستمع شريك
 المفتاب . ووقع الى عمر بن عبد العزيز قوم يشربون الخمر وكان
 فيهم جليس لهم صائم فقال ابدؤا به في الجلد ألم تسمع الله يقول
 (فلا تقعدوا معهم) فاذا كان هذا في المجالسة والعشرة العارضة
 حين فعلهم للمنكر يكون مجالستهم مثلاً لهم فكيف بالعشرة الدائمة :
 والزواج يقال له العشر كما في الحديث من حديث ابن عباس عن
 النبي صلى الله عليه وسلم « قال رأيت النار فاذا أكثر أهلها النساء
 يكفرن قيل يكفرن بالله قال يكفرن العشير ويكفرن الاحسان »
 فآخبر أنه لا يفعل ذلك إلا زان أو مشرك .

أما المشرك فلا إيمان له يزجره عن الفواحش ومجاسعة أهلها :
 وأما الزاني فقبحوره يدعو الى ذلك وان لم يكن مشركا . وفي الآية
 دليل على أن الزاني ليس بمؤمن مطلق الإيمان وإن لم يكن كافراً
 مشركاً كما في الصحيح « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »
 وذلك أنه أخبر أنه لا ينكح إلا زانية أو مشركة ثم قال تعالى (وحرم
 ذلك على المؤمنین) فعلم أن الإيمان يمنع من ذلك ويوجب وأن قاعلة
 إما مشرك وإما زان ليس من المؤمنین الذين يمنعون إيمانهم من ذلك
 وذلك أن الزانية فيها افساد قرأش الرجل وفي مناهجتها معاشره
 الفاجرة دائماً ومصاحبيتها والله قد أمر بهجر السوء وأهله ما داموا
 عليه وهذا المعنى موجود في الزاني فإن الزاني ان لم يفسد قرأش

امراته كان قرين سوء لها كما قال الشعبي : من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها ، وهذا مما يدخل به على المرأة ضرر في دينها ودنياها فنكاح الزانية أشد من جهة الفراش ونكاح الزاني أشد من جهة أنه السيد المالك الحاكم على المرأة فتبقى المرأة الحرة العفيفة في أسر الفاجر الزاني الذي يقصر في حقوقها ويتعدى عليها . ولهذا اتفق الفقهاء على اعتبار الكفاءة في الدين وعلى تبوت الفسخ بفوات هذه الكفاءة واختلّفوا في صحة النكاح بدون ذلك وهما قولان مشهوران في مذهب أحمد وغيره فإن من تكح زانية مع أنها تزني فقد رضى بأن يشترك هو وغيره فيهما ورضى لنفسه بالقيادة والديانة ومن تكحت زان وهو يزني بغيرها فهو لا يصون ماءه حتى يضعه فيها بل يرميه فيها وفي غيرها من البغايا فهي بمنزلة الزانية المتخذة خدنا فإن مقصود النكاح حفظ الماء في المرأة وهذا الرجل لا يحفظ ماءه والله سبحانه شرط في الرجال أن يكونوا محصنين غير مسافحين فقال (وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) وهذا المعنى مما لا ينبغي اغفاله فإن القرآن قد نصه وبينه بيانا مفروضا كما قال تعالى (سورة أنزلناها وفرضناها) *

فأما تحريم نكاح الزانية فقد تكلم فيه الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم وفيه آثار عن السلف وإن كان الفقهاء قد تناسعوا فيه وليس مع من أباحه ما يعتمد عليه ،

وقد ادعى بعضهم أن هذه الآية منسوخة بقوله (والمحصنات) وزعموا أن البغى من المحصنات وتلك الآيات حجة عليهم فإن أقل ما في الإحصان العفة وإذا اشترط فيه الحرية فذلك تكميل للعفة والإحصان ومن حرم نكاح الأمة لئلا يرق ولده كيف يبيع البغى التي تلحق به من ليس بولده وابن نساء فراشه من رقيق ولده ؛ وكذلك من زعم أن النكاح هنا هو الوطء ، والمعنى أن الزاني لا يطلأ الزانية أو مشركة والزانية لا يطلأها إلا زان أو مشرك وهذا أبلغ في

الحجة عليهم فمن وطئ زانية أو مشركة يتكاح فهو زان ، وكذلك
من وطئها زان فإن ذم الزاني بفعله الذي هو الزنا حتى أو استكرهها
أو استدخلت ذكره وهو نائم كان العقوبة للزاني دون قريبه وهذه
المسألة مبسطة في كتب الفقه .

والمقصود قوله (الزاني لا يتكح الا زانية أو مشركة) فإن هذا
يدل على أن الزاني لا يتزوج الا زانية أو مشركة وإن ذلك حرام على
المؤمنين وليس لمجرد كونه فاجرا بل لخصوص كونه زانيا وكذلك
في المرأة ليس لمجرد فجورها بل لخصوص زناها بدليل أنه جعل
المرأة زانية إذا تزوجت زانيا كما جعل الزوج زانيا إذا تزوج زانية
هذا إذا كانا مسلمين يعتقدان تحريم الزنا وإذا كانا مشركين فينبغي
أن يعلم ذلك ، ومضمونه أن الرجل الزاني لا يجوز تكاحه حتى
يتوب وذلك بأن يوافق اشتراطه الإحصان والمرأة إذا كانت زانية
لا تحصى فرجها عن غير زوجها بل يأتيها هو وغيره كان الزوج زانيا
هو وغيره يشتركون في وطئها كما تشترك الزناة في المرأة الواحدة
ولهذا يجب عليه نفى الولد الذي ليس منه فمن تكح زانية فهو زان
أي تزوجها ومن تكحت زانيا فهي زانية أي تزوجته فإن كثيرا من
الزناة قصروا أنفسهم على الزواني فتكون المرأة خدنا وخليلا له
لا يأتي غيرها فالرجل إذا كان زانيا لا يعف امرأته وإذا لم يعفها
نشوت هي إلى غيره فزنت به كما هو الغالب على نساء الزواني
أو من يلوط بالصبيان فإن نسائه يرتين ليقضين أربهن ووطرهن
ويراعهن أزواجهن بذلك حيث لم يعفوا أنفسهم عن غير أزواجهن
فهن أيضا لم يعفن أنفسهن عن غير أزواجهن ولهذا يقال : « عفا
تعف نساؤكم وابتاؤكم وبروا أباؤكم تبركم أبنائكم » فإن الجزاء
من جنس العمل وكما تدبر قدام ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها
فإن الرجل إذا رضي أن يتكح زانية رضي أن تزني امرأته والله تعالى
قد جعل بين الزوجين مودة ورحمة فأحدهما يحب لنفسه ما يحب
للاخر فإذا رضيت المرأة أن تتكح زانيا فقد رضيت عمله ، وكذلك

ان رضى الرجل أن ينكح زانية فقد وصى عطلها ومن رضى الزنا كان بمنزلة الزانى فان أصل الفعل هو الإرادة ولهذا جاء في الأثر « من تهاب عن معصية فرضيها كان كمن شهدها أو فعلها » : وفي الحديث « المرء على دين خليله » واعظم الخلطة خلطة الزوجين وأيضا فان الله قد جعل في نفوس بنى آدم من الفيرة ما هو معروف فيستعظم الرجل ان يظن ان رجل امراته اعظم من غيرته على نفسه ان يزنى فاذا لم يكره ان تكون زوجته بغيا وهو ديوث كيف يكره ان يكون هو زانى : ولهذا لم يوجد من هو ديوث أو قواد يصف عن الزنا فان الزانى له شهوة في نفسه والديوث ليس له شهوة في زنا غيره فاذا لم يكن معه ايمان يكره به زنا غيره بزوجه كيف يكون معه ايمان يمنعه من الزنا فمن استحل أن يترك امراته تزنى استحل اعظم الزنا ومن امان على ذلك فهو كالزانى ومن اقر على ذلك مع أمكان تغييره فقد رضى ومن تزوج غير ثالبة فقد رضى أن تزنى إذ لا يمكنه منعها من ذلك فان كيد النساء عظيم : ولهذا جاز للرجل اذا اتت امراته بفاحشة مبينة أن يعضلها لتفتدى نفسها منه وهو نص أحمد وغيره لأنها برئناها طلبت الاختلاع منه وتعرضت لأفساد نكاحه فانه لا يمكنه المقام معها حتى تتوب ولا يسقط المهر بمجرد زناها كما دل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم للملاعن لما قال عالى قال « لا مال لك عندها ان كنت صادقا عليها فهو بما استحللت من فرجها وان كنت كاذبا عليها فهو أبعد لك » لأنها اذا زنت قد تتوب لكن زناها يبيع له اعضالها حتى تفتدى منه نفسها ان اختارت فراقه أو تتوب .

وفي الغالب أن الرجل لا يزنى بغير امراته الا اذا أعجبه ذلك الفير فلا يزال يزنى بما يعجبه فتبقى امراته بمنزلة المعلقة التي لا هي أيم ولا ذات زوج فيدعوها ذلك الى الزنا ويكون الباعث لها على ذلك مقابلة زوجها على وجه القصاص مكابدة له ومفايظة فانه ما لم يحفظ فيها لم تحفظ غيبه ، ولها في بضمه حق كما له في بضمها

حق فإذا كان من العادين لخروجه عما أباح الله له لم يكن قد أحصى نفسه وأيضاً فإن داعية الزاني تشتغل بما يختاره من البقايا فلا تبقى داعيته إلى الحلال تامة ولا غيرته كافية في احصائه المرأة فتكون عنده كالزانية المنخلدة خدنا وهذه معان شريفة لا ينبغي إهمالها .

وعلى هذا فالمرأة الساحقة زانية كما جاء في الحديث « سحاق النساء زنا بينهن » والرجل الذي يعمل عمل قوم لوط بمملوك أو غيره زان والمرأة الناكحة له زانية فلا تنكحه إلا زانية أو مشركة ولهذا يكثر في نساء اللوطية من تزني بغير زوجها وربما زنت بمن يتلوط هو به مراغمة له وقضاء لوطرها ، وكذلك المرأة المزوجة بمخنت ينكح كما تنكح هي متزوجة بزان بل هو أسوأ الشخصين حالاً فإنه مع الزنا صار مخنثاً ماعوناً على نفسه للتخنيث غير اللعنة التي تصيبه بعمل قوم لوط فإن النبي صلى الله عليه وسلم لعن من يعمل عمل قوم لوط وثبت عنه في الصحيح أنه لعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء وقال « أخرجوهم من بيوتكم » وكيف يجوز للمرأة أن تتزوج بمخنت قد انتقلت شهوته إلى دبره فهو يؤتى كما تؤتى المرأة وتضعف داعيته من أمامه كما تضعف داعية الزاني بغير امرأته عنها فإذا لم تكن له غيره على نفسه ضعفت غيرته على امرأته وغيرها ولهذا يوجد من كان مخنثاً ليس له كبير غيره على ولده ومملوكه ومن يكفله ، والمرأة إذا رضيت بالمخنث واللوطي كانت على دينه فتكون زانية وأبغ فان تمكين المرأة من نفسها أسهل من تمكين الرجل من نفسه فإذا رضيت ذلك من زوجها رضيته من نفسها .

ولفظ هذه الآية وهو قوله تعالى (الزاني لا ينكح إلا زانية) الآية يتناول هذا كله إما بطريق عموم اللفظ أو بطريق التثنية ونحوي الخطاب الذي هو أقوى من مدلول اللفظ وأدنى ذلك أن يكون بطريق القياس كما قد بيناه في حد اللوطي ونحوه والله أعلم .

وقوله تعالى (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) فأخبر تعالى أن النساء الخبيثات للرجال الخبيثين فلا تكون خبيثة لطيب فان ذلك خلاف الحصر فلا تنكح الزانية الخبيثة الا زانيا خبيثا ، وأخبر أن الطيبين للطيبات فلا يكون الطيب لامرأة خبيثة فان ذلك خلاف الحصر اذ قد ذكر أن جميع الخبيثات للخبيثين فلا تبقى خبيثة لطيب ولا طيب لخبيثة ، وأخبر أن جميع الطيبات للطيبين فلا تبقى طيبة لخبيث فجاء الحصر من الجانبين موافقا لقوله (الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك وحرم ذلك على المؤمنتين) ولهذا قال من قال من السلف ما بفت امرأة نبي فقل فان هذه السورة نزل صدرها بسبب أهل الافك وما قالوه في عائشة : ولهذا لما قيل فيها ما قيل وصارت شبهة استشار النبي صلى الله عليه وسلم من استشاره في مطلقها قيل ان تنزل براءتها اذ لا يصح له ان تكون امرأته غير طيبة ، وقد روى « أنه لا يدخل الجنة ديوث » والديوث الذي يقر النسوة في أهله .

ولهذا كانت الغيرة على الزنا مما يحبها الله وأمر بها حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم « أتعجبون من غيرة سعد لأننا اغير منه والله اغير مني » من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولهذا آذن الله للقاذف اذا كان زوجها ان يلاعن فيشهد أربع شهادات انه لمن الصادقين وجعل ذلك يدفع عنه حد القذف كما لو أقام على ذلك أربع شهود لانه محتاج الى قدحها لأجل ما أمر الله به من الغيرة ولانها ظلمته بافساد فراشه وان كانت قد حبلت من الزنا فعليه اللعان لينفى عنه النسب الباطل لئلا يلحق به ما ليس منه .

وقد مضت سنة النبي صلى الله عليه وسلم بالتفريق بين المتلايمين سواء حصلت الفرقة بتلاعنها او احتاجت الى تفريق الحاكم او حصلت عند انقضاء لعان الزوج لأن أحدهما ملعون أو خبيث فاقترانهما بعد ذلك يقتضي مقارنة الخبيث الملعون للطيب .

وفي صحيح مسلم عن عمران بن حصين « حديث المرأة التي لعنت قاعة لها فأمر النبي صلى الله عليه وسلم فأخذ ما عليها وأرسلته وقال لا تصحبنا قاعة مملوثة » وفي الصحيحين عنه أنه لما اجتاز بديار ثمود قال « لا تدخلوا على هؤلاء الممذيين إلا أن تكونوا بأكين فإن لم تكونوا بأكين فلا تدخلوا عليهم لئلا يصيبكم ما أصابهم » فنهى عن عبور ديارهم إلا على وجه الخوف المنع من العذاب .

وهكذا السدة في مقارنة الظالمين والزناة وأهل البدع والفجور وسائر المعاصي لا ينبغي لأحد أن يقارنهم ولا يخالفهم إلا على وجه يسلم به من عذاب الله عز وجل وأقل ذلك أن يكون منكرا لظلمهم ماقتا لهم شأننا ما هم فيه بحسب الامكان كما في الحديث « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » وقال تعالى (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) الآية وكذلك ما ذكره عن يوسف الصديق وعمله على خزائن الأرض لصاحب مصر لقوم كفار ، وذلك أن مقلوبة القجار إنما يفعلها المؤمن في موضعين أحدهما أن يكون مكرها عليها . والثاني أن يكون ذلك في مصلحة دينية راجحة على مفسدة المقارنة أو أن يكون في تركيبها مفسدة راجحة في دينه فيدفع أعظم المفسدين باحتمال أدناهما وتحصل المصلحة الراجحة باحتمال المفسدة المرجوحة وفي الحقيقة فالكره هو من يدفع الفساد الحاصل باحتمال أدناهما وهو الأمر الذي أكره عليه قال تعالى (إلا من أكره وقلبه مضطرب بالإيمان) وقال تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء) ثم قال (ومن يكرهن فإن الله من بعد أكرههن غفور رحيم) وقال تعالى (أن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا أننا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا أفيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا) وقال (وما لكم

لا يتقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الآية . فقد دلت هذه الآية على النهي عن مناكحة الزاني والمناكحة نوع خاص من المعاشرة والمزاوجة والمقارنة والمصاحبة ولهذا سمي كل منهما زوجا ومساخبا وقرينا ومشيرا للآخر والمناكحة في أصل اللغة المجامعة والمضامة فقلوبهما تجتمع إذا عقد العقد بينهما ويصير بينهما من التعاطف والتراحم ما لم يكن قبل ذلك حتى تنبت بذلك حرمة المصاهرة في غير الريبة لجرد ذلك في التوارث وعدة الوفاة وغير ذلك ؛ وأوسط ذلك اجتماعهما خاليين في مكان واحد وهو المعاشرة المقررة للصدائق كما قضى به الخلفاء ؛ وآخر ذلك اجتماع المياصرة وهذا وإن اجتمع بدون عقد نكاح فهو اجتماع ضعيف بل اجتماع القلوب اعظم من مجرد اجتماع البدن بالسفاح .

ودل قوله (الطيبات للطيبين) على ذلك من جهة اللفظ ودل أيضا على النهي عن مقارنة الفجار ومزاجتهم كما دل على غير ذلك من النصوص مثل قوله (احشروا الذين ظلموا وزواجهم) أي وأشباههم ونظراءهم والزواج أعم من النكاح المعروف قال تعالى (يهب لمن يشاء آناسا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرا أو أنثى) وقال (وإذا النفوس زوجت) وقال (من كل زوج بهيج) أي كريم وقال (ومن كل شيء خلقنا زوجين) وقال (جعل فيها زوجين اثنين) وقال (وخلقناكم أزواجا) قال (فاحمل فيها من كل زوجين اثنين) وقال (إن من أزواجكم وأولادكم) وإن كان في الآية نصا في الزوجة التي هي الصاحبة وفي الولد منها فمفنى ذلك في كل مشابه ومقارن ومشارك وفي كل فرع وتابع (قال الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدن) ؛ و (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا) .

فالمصاحبة والمصاهرة والمزاوجة لا تجوز إلا مع أهل طاعة الله

تعالى على مراد الله : ويدل على ذلك الحديث الذي في السنن
« لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي » وفيها « المرء على
دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » وفي الصحيحين من حديث
أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا زنت أمة
أحدكم فليجلدها الحد ثم إن زنت فأيجلدها الحد ثم إن زنت
فليبعها ولو بضعير » والضعير الحبل : وشك الراوي هل أمر ببيعها
في الثالثة أو الرابعة وهذا أمر من النبي صلى الله عليه وسلم ببيع
الامة بعد إقامة الحد عليها مرتين أو ثلاثاً ولو بادتي مال قال الامام
احمد ان ثم يبعها كان تاركاً لأمر النبي صلى الله عليه وسلم .

والاماء اللاتي يفعلن هذا تكون عامتهن للخدمة لا للتمتع فكيف
بأمة التمتع وإذا وجب اخراج الأمة الزانية من ملكه فكيف بالزوجة
الزانية : والعبد والمملوك نظير الأمة ويدل على ذلك كله ما رواه مسلم
في صحيحه عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم
« انه لعن من أحدث حديثاً أو آوى محدثاً » فهذا يوجب لعنة كل
من آوى محدثاً سواء كان أحدانه بالزنا أو السرقة أو غير ذلك
وسواء كان الأيواء بملك يمين أو نكاح أو غير ذلك لأن أقل ما في
ذلك تركه انكار المنكر .

والمؤمن محتاج الى امتحان من يريد ان يصاحبه ويقارنه بذلك وغيره قال تعالى (اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلى بايمانهن) الآية ، وكذلك المرأة التي زنا بها الرجل فانه لا ينزوح بها الا بعد التوبة في اصح القولين كما دل عليه الكتاب والسنة والآثار لكن اذا اراد ان يمتحنها هل هي صحيحة التوبة أم لا فقال عبد الله ابن عمر وهو المنصوص عن احمد انه يراودها عن نفسها فان اجابته لم تصح توبتها وان لم تجبه فقد ثابت ، وقالت طائفة هذا الامتحان فيه طلب الفاحشة منها وقد تنقض التوبة وقد تأمره نفسه بتحقيق اهل الفاحشة وتزين لهما الشيطان ذلك ولا سيما ان كان يحبها وتحبه وقد تقدم له معها فعل الفاحشة مرات وذاقته وذاقها فقد تنقض التوبة ولا يخالفه فيما اراده منها ، ومن قال بالأول قال الامر الذي يقصد به امتحانها لا يقصد به نفس الفعل فلا يكون امرا يعا نهى الله عنه ويمكنه ان لا يطلب الفاحشة بل يعرض بها ويتوى شيئا آخر والتعريض للحاجة جائز بل واجب في مواضع كثيرة ، وأما نقضها توبتها فاذا جاز ان تنقض التوبة معه جاز ان تنقضها مع غيره والمقصود ان تكون ممتنعة ممن يراودها فاذا لم تكن ممتنعة منه لم تكن ممتنعة من غيره .

وأما تزوين الشيطان له الفعل فهذا داخل في كل امر يفعله

الإنسان من الخير يجد فيه محنته فإذا أراد الإنسان أن يصاحب
أحدًا وقد ذكر عنه الفجور وقيل أنه نأبذ منه أو كان ذلك مقولا
عنه سواء كان ذلك القول صدقا أو كذبا فإنه يمتحنه بما يظهر به
بره أو فجوره وصدقه أو كذبه ، وكذلك إذا أراد أن يولي أحدا
ولاية امتحنه كما أمر عمر بن عيسى العزيز غلامه أن يمتحن ابن
أبي موسى لما أعجبه سسته فقال له قد علمت مكانى عند أمير المؤمنين
فكم تعطينى إذا اشترت عليه بولايتك فيلعل له مالا عظيما فعلم عمر
أنه ليس ممن يصلح لنولاية وكذلك في المعاملات وكذلك الصبيان
والمماليك الذين عرفوا أو قيل عنهم الفجور وأراد أن يرسلهم
بأنه يمتحنه فإن المخلص كالنقي وتوبته كتوبتها ومعرفة أحوال
الناس تارة تكون بشهادات الناس وتارة تكون بالجرح والتعديل
وتارة تكون بالاختبار والامتحان .

وكما عظم الله الفاحشة عظم ذكرها بالباطل وهو القذف فقال
بعد ذلك (والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا بأربعة شهداء
فاجلدوهم ثمانين جلدة) ثم ذكر رمي الرجل امرأته وما امر فيه
من الثلاثين ثم ذكر قصة اهل الافك وما في ذلك من الخير المقذوف
المكذوب عليه وما فيه من الاثم للقاذف وما يجب على المؤمنين اذا
سمعوا ذلك ان يظنوا باخوانهم المؤمنين الخير ويقولون هذا افك
مبين لان دليله كذب ظاهر ثم اخبر انه قول بلا حجة فقال (لولا
جاؤوا عليه بأربعة شهداء فاذا لم ياتوا بالشهداء فاولئك عند الله
هم الكاذبون) ثم اخبر انه لولا فضله عليهم ورحمته لمهديهم
بما تكلموا به .

وقوله (اذ تلقونه بالسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به
علم) فهذا بيان لسبب العذاب وهو تلقى الباطل باللسنة والقول
بالأفواه وهما نوعان محرمان : القول بالباطل : والقول بلا علم .
قال سبحانه (لولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا
سبحانك هذا بهتان عظيم) فالأول تحضيض على الظن الحسن
وهذا نهى لهم عن التكلم بالقذف : ففي الأول قوله (اجتنبوا كثيرا
من الظن ان بعض الظن اثم) ويقول النبي صلى الله عليه وسلم
(اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث) وقوله (ظن المؤمنون
والمؤمنات بانفسهم خيرا) دليل على حسن مثل هذا الظن الذي

أمر الله به : وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم
 قال لعائشة « ما أظن فلانا وقلانا يدريان من أمرنا هذا شيئاً » فهذا
 يقتضي جواز بعض الظن كما احتج البخاري بذلك لكن مع العلم
 بما عليه المرء المسلم من الإيمان الوازع له عن فعل الفاحشة يجب
 أن يظن به الخير دون الشر : وفي الآية نهى عن تلقي مثل هذا باللسان
 ونهى عن أن يقول الإنسان ما ليس له به علم لقوله تعالى (ولا تقف
 ما ليس لك به علم) والله تعالى جعل في فعل الفاحشة والقذف
 من العقوبة ما ثم يجمله في شيء من المعاصي لأنه جعل فيها الرجم
 وقد رجم هو تعالى قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل فاحشة
 اللواط وجعل العقوبة على القذف بها ثمانين جلدة والرامي غيرها
 فيه الاجتهاد ويجوز عند بعض العلماء أن يبلغ الثمانين عند كثير
 منهم كصفا قال علي « لا أوتي بأحد يفضلي على أبي بكر وعمر
 إلا جلده حدة المفترى » وكما قال عبد الرحمن بن عوف إذا شرب
 هدي وإذا هدي افترى وحده الشرب ثمانون وحده المفترى ثمانون .
 وقوله تعالى (أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين
 آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) الآية وهذا ذم لمن يحب
 ذلك وذلك يكون بالقلب فقط ويكون مع ذلك باللسان والجوارح
 وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة أو يخبر بها محبة لوقوعها في المؤمنين
 إما حسداً أو بغضا وأما محبة تلفاحشة وإرادة لها فكل من أحب
 فعلها ذكرها .

وكره العلماء القول من الشعر الذي يرفع فيها : وكذلك
 ذكرها غيبة محرمة سواء كان يظلم أو نشر وكذلك التشبه بمن
 يفعلها منهي عنه مثل الأمر بها فإن الفعل يطلب بالأمر تارة وبالأخبار
 تارة فهذان الأمران للنجاسة اللوطية مثل ذكر قصص الأنبياء
 والصالحين للمؤمنين أولئك يعتبرون من الفرة بهم وهؤلاء يعتبرون
 من الاغترار فإن أهل الكفر والفسق والعصيان يذكرون من قصص

أشبهاهم ما يكون به لهم قبيح قدوة وأسوة ومن ذلك قوله تعالى
(ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم
ويتخذها هزواً) قيل أراد الغناء وقيل أراد قصص الملوك من الكفار
من الفرس .

وبالجملة كل ما رغب النفوس في طاعة الله ونهاها عن معصيته
من خير أو أمر فهو من طاعته وكل ما رغبها في معصيته ونهى عن
طاعته فهو من معصيته فاما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب
أو يستحب في الشريعة مثل النهي عنها وعنهم والدم لها ولهم وذكر
ما يبيضها وينفر عنها وذكر أهلها مطلقاً حيث يسوغ ذلك وما يشرع
لهم من الدم في وجوههم ومقبيحهم فهذا كله حسن يجب تارة
ويستحب أخرى وكذلك ما يدخل فيها من وصفها ووصف أهلها
من العشق على الوجه المشروع الذي يوجب الانتهاء عما نهى الله عنه
واليقض لما يبغضه وهذا كما أن الله قصص علينا في القرآن قصص
الأنبياء والمؤمنين والمنقين وقصص الفجار والكفار ليعتبر بالأميرين
فحسب الأولين وسبيلهم ونقصد بهم وببغض الآخرين وسبيلهم
وتجنب فعالهم وقد ذكر الله عن أنبيائه وعباده الصالحين من ذكر
الفاحشة وعلانيتها على وجه الدم ما فيه عبرة ، قال تعالى (ولوطا
إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين)
إلى آخر القصص في مواضع من كتابه فهذا لوط خاطب أهل الفاحشة
وهو رسول الله بتقريعهم بها بقوله (أتأتون الفاحشة) وهذا استفهام
إنكار ونهى إنكار ذم ونهى كالرجل يقول للرجل أفعل كذا وكذا
أما تنقّى الله ثم قال (أنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء)
وهذا استفهام ثان فيه من الدم والتوبيخ ما فيه وليس هذا من
باب القذف واللمزة : وكذلك قوله (كذبت قوم لوط المرسلين) إلى
آخر القصة فقد وأجههم بدمهم وتوبيخهم على فعل الفاحشة ،
ثم أن أهل الفاحشة توعدوهم وتهددوهم بأخراجهم من القرية وهذا
حال أهل الفيء إذا كذب بينهم من ينهاتهم طلبوا نفيه وأخراجه

وقد عاقب الله أهل الفاحشة اللوطية بما أرادوا أن يقصدوا به أهل
التقوى حيث أمر بنفى الزانى ونفى الخبث فمضت سنة رسول
الله صلى الله عليه وسلم ينفى هذا وهذا وهو سبحانه أخرج المتقين
من بينهم عند نزول العذاب ؛ وكذلك ما ذكره تعالى في قصة يوسف
(ورأودته التى هو فى بيتها عن نفسه) الى قوله (فصرف عنه
كيد من انه هو السميع العليم) وما ذكره بعد ذلك فمر كلام يوسف
من قوله (ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن) وهذا من باب
الاعتبار الذى يوجب انتهاز النفوس عن مصيبة الله والتمسك
بالتقوى وكذلك ما بينه فى آخر السورة بقوله (لقد كان فى قصصهم
عبرة لاولى الالباب) .

ومع هذا فمن الناس والنساء من يحب سماع هذه السورة
لا فيها من ذكر العشق وما يتعلق به لمحبة لذلك ورغبته فى
الفاحشة حتى ان من الناس من يقصد اسماعها للنساء وغيرهن
لمحبتهم للسوء ويعطفون على ذلك ولا يختارون ان يسمعوا ما فى
سورة النور من المقوية والنهى عن ذلك حتى قال بعض السلف
كلما حصلت فى سورة يوسف انفقته فى سورة النور ؛ وقد قال
تعالى (ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) ثم قال
(ولا يزيد الظالمين الا خسارا) وقال (واذا انزلت سورة فعلهم من
يقول ايكم زادته هذه ايمانا فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم
يستبشرون واما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم
وماتوا وهم كافرون) فكل احد يحب سماع ذلك لتحريك المحبة
المذمومة ويغض سماع ذلك اعراضا عن دفع هذه المحبة وازالتها
فهو مذموم .

ومن هذا الباب ذكر احوال الكفار والفجار وغير ذلك مما فيه
فرغيب فى معصية الله وصد عن سبيل الله ، ومن هذا الباب سماع
كلام اهل البدع والنظر فى كتبهم لن يضره ذلك ويدعوه الى سبيلهم

والى معصية الله فهذا الباب تجتمع فيه الشهوات والشبهات والله تعالى ذم هؤلاء في مثل قوله (يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا) وفي مثل قوله (والشعراء يتبعهم الغاؤون) ومثل قوله (هل أتيتكم على من تنزل الشياطين) الآية وما بعدها ، ومثل قوله (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا) وقوله (مستكبرين به سامرا تهجرون) ومثل قوله (وان يروا سبيل الرشدة لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الفتن يتخذوه سبيلا) ومثل قوله (وان تطع أكثر من في الأرض يضلوا عن سبيل الله) الآية .

ومثل هذا كثير في القرآن فأهل المعاصي كثيرون في العالم بل هم أكثر كما قال تعالى (وان تطع أكثر من في الأرض يضلوا عن سبيل الله) الآية ، وفي النفوس من الشبهات المذمومة والشهوات قولاً وعملاً ما لا يعلمه إلا الله وأهلها يدعون الناس اليها ويقهرون من يعصيههم ويؤنسونها لمن يعطيهم فهم أعداء الرسل واندادهم فرسل الله يدعون الناس الى طاعة الله ويأمرونهم بها بالرغبة والرهبة ويجاهدون عليها وينهون عن معاصي الله ويحذرونهم منها بالرغبة والرهبة ويجاهدون من يفعلها وهؤلاء يدعون الناس الى معصية الله ويأمرونهم بها بالرغبة والرهبة قولاً وفعلاً ويجاهدون على ذلك قال تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله ونسيتهم ان المنافقين هم الفاسقون) ثم قال (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله) وقال تعالى (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والدين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) .

ومثل هذا في القرآن كثير والله سبحانه قد أمرنا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمر بالشئ مسبوق بمعرفته فمن لا يعلم المعروف لا يمكنه النهي عنه وقد أوجب الله علينا فعل المعروف وترك المنكر فإن حب الشئ وفعله وينقض ذلك وتركه لا يكون إلا بعد العلم بهما حتى يصح القصد إلى فعل المعروف وترك المنكر فإن ذلك مسبوق بعلمه فمن لم يعلم الشئ لم يتصور منه حب له ولا بغض ولا فعل ولا ترك لكن فعل الشئ والأمر به يقتضي أن يعلم علما مفصلا يمكن معه فعله والأمر به إذا أمر به مفصلا .

ولهذا أوجب الله على الإنسان معرفة ما أمر به من الواجبات مثل صلاة النافلة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا أمر بأوصاف فلا بد من العلم بشئونها فكما أنا لا نكون مطيعين إذا علمنا عدم الطاعة فلا نكون مطيعين إذا لم نعلم وجودها بل الجهل بوجودها كالعلم بعدمها وكون كل منهما معصية فإن الجهل بالتساوي كالعلم بالتفاضل في بيع الأموال الربوية بعضها بحسنه فإن لم نعلم المماثلة كان كما لو علمنا المفاضلة ؛ وأما معرفة ما يتركه وينهى عنه فقد يكفي بمعرفته في بعض المواضع مجعلا فالإنسان يحتاج إلى معرفة المنكر وانكاره وقد يحتاج إلى الخجيج المبينة لذلك وإلى الجواب عما يمارض به أصحابها من الحجج وإلى دفع أهوائهم وأرادتهم وذلك يحتاج إلى إرادة جازمة وقدرة على ذلك وذلك لا يكون إلا بالصبر كما قال تعالى (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) .

وأول ذلك أن نذكر الأقوال والأفعال على وجه الدم لها والنهي عنها وبيان ما فيها من الفساد فإن الإنكار سائق واللسان قبل الإنكار باليد وهذه طريقة القرآن فيما يذكره تعالى عن الكفار

والفساق والمعصاة من أقوالهم وأفعالهم يذكر ذلك على وجه الذم والبغض لها ولاهلها وبيان فسادها وضدها والتحذير منها كما أن فيها بذكره عن أهل العلم والإيمان ومن فيهم من أنبيائه وأوليائه على وجه المدح والحب وبيان صلاحه ومنفعته والترغيب فيه وذلك نحو قوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون) وقالوا (اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا) (ان كل من في السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا لقد احصاهم وعدهم عدا وكلهم آتية يوم القيامة فردا) ، (وقالت اليهود عزيز ابن الله) الآيات .

وهذا كثير جدا قاله الذي يحجب أقوالهم وأفعالهم هو منهم اما كافر واما عاجز بحجب قوله وفعله وليس منهم من هو بمكسبه وليس عليه عذاب في تركه لكنه لا يشاب على مجرد عدم ذلك وانما يشاب على قصده لتروك ذلك واراذه وذلك مسبوق بالعلم بيقبح ذلك وبفضه لله وهذا العلم والقصد والبغض هو من الايمان الذي يشاب عليه وهو أدنى الايمان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده » الى آخره وتغيير القلب يكون بالبغض لذلك وكراهته وذلك لا يكون الا بعد العلم به وتقبحه ثم بعد ذلك يكون الإنكار باللسان ثم يكون باليد والنبي صلى الله عليه وسلم قال « وذلك اضعف الايمان » فيمن رأى المنكر فاما اذا رآه فلم يعلم انه منكرو ولم يكرهه لم يكن هذا الايمان موجودا في القلب في حال وجوده ورؤيته بحيث يجب بفضه وكراهته والعلم بقبحه يوجب جهاد الكفار والمنافقين اذا وجدوا واذا لم يكن المنكر موجودا لم يجب ذلك ويشاب من انكره عند وجوده ولا يشاب من لم يوجد عنده حتى يشكره وكذلك ما يدخل في ذلك من الأقوال والأفعال والمنكرات قد يمرض عنها كثير من الناس اعراضهم عن جهاد الكفار

والمنافقين وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهؤلاء وإن كانوا
من المهاجرين للدين هجروا السيئات فليسوا من المجاهدين الذين
يجاهدون في أزائها حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

فتدبر هذا فإنه كثير ما يجتمع في كثير من الناس هذان الأمران
بعض الكفر وأهله وبعض الفجور وأهله . وبعض نهيم وجهادهم
كما يحب المعروف وأهله ولا يحب أن يأمر به ولا يجاهد عليه بالنفس
والمال : وقد قال تعالى (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله
ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم
الصادقون) وقال تعالى (قل إن كان آباؤكم وأخوانكم وأزواجكم
وعشيرتكم وأموال أخرقتكموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن
ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى صواب
حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) وقوله (لا تجد
قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو
كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في
قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) الآية .

وكثير من الناس بل أكثرهم كراهتهم للجهاد على المنكرات
أعظم من كراهتهم للمنكرات لا سيما إذا كثرت المنكرات وقويت
فيها الشهوات والشهوات فربما مالوا إليها تارة ومنها أخرى فتكون
نفس أحدهم لوامة بهذا أن كانت أمارة ثم إذا ارتقى إلى الحال
الأعلى في هجر السيئات وصارت نفسه مطمئنة تاركة للمنكرات
والمكروهات لا تحب الجهاد ومصاهرة العدو على ذلك . واحتمال
ما يؤذيه من الأقوال والأفعال فإن هذا شيء آخر داخل في قوله
(ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا
الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس
خشية الله أو أشد خشية) الآيات إلى قوله (وكان الله على كل
شيء مقبلاً) والشفاعة الإمامة إذ المعين قد صار شفيعاً للمعان فكل
من أعان على بر أو تقوى كان له نصيب منه ومن أعان على الإثم

والعدوان كان له كفل منه وهذا حال الناس فيما يفعاونه بقلوبهم
والستهم وأيديهم من الإعانة على البر والتقوى والإعانة على الإثم
والعدوان ومن ذلك الجهاد بالنفس والمال على ذلك من الجانبين
كما قال تعالى قبل ذلك : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا
ثِبَاتًا أَوْ انفِرُوا خِفَافًا (إلى قوله :) أن كيد الشيطان كان ضعيفا) .

ومن هنا يظهر الفرق في السمع والبصر من الإيمان والافتقار
والكفر والآثار والفرق بين المؤمن البر وبين الكافر الفاجر فان
المؤمنين يسمعون أخبار أهل الإيمان فيشهدون بقيمتهم على وجه
العلم والمعرفة والمحبة والتعظيم لهم ولأخبارهم وآثارهم كروية
الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم وسمعتهم لما بلغه عن الله
والكافر والمنافق يسمع ويرى على وجه البغض والجهل كما قال
تعالى : (وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ)
وقال : (فَإِذَا نَزَلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) وقال
(مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ) وقال (فَصَمُّوا
وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ) وقال تعالى
في حق المؤمنين (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُؤْا عَلَيْهَا
صُمًّا وَعُمْيَانًا) وقال في حق الكفار (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ)
والآيات في هذا كثيرة جدا وكذلك النظر إلى زينة الحياة الدنيا
فتنة فقال تعالى : (وَلَا تَعْدُنَّ عُيُوتَكُمْ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ بِهِنَّ أَزْوَاجًا مِنْهُنَّ
زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُنَّ فِيهِ وَرِزْقٌ وَبِكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وفي آخر
الفتح (وَلَا تَعْبُوكُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ) الآية وقال (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ
يُغْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) الآية وقال (وَلَا تَعْدُنَّ عُيُوتَكُمْ عَنْهُمْ فَرِيدَ زِينَةِ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) وقال (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) الآيات :
وقال (قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وقال (أَفَلَمْ يَرَوْا
إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) الآية : وكذلك

قال الشيطان (انى ارى مالا ترون) وقال (فلما فرأى الجمعان)
 الآيات وقال (اذ يريدكم الله فى مثلك قليلا) الآية .
 فالنظر الى منافع الدنيا على وجه المحبة والتعظيم لها ولاهلها
 منهى عنه والنظر الى المخلوقات العلوية والسفلية على وجه المنكر
 والاعتبار بمأمور به مندوب اليه . واما رؤية ذلك عند الجهاد والامر
 بالمعروف والنهى عن المنكر لدفع شر أولئك وإزالته فمأمور به
 وكذلك رؤية الاعتبار شرعا فى الجملة فالعين الواحدة ينظر اليها
 نظر مأمورا به اما للاعتبار واما لبعض ذلك والنظر اليه لبعض
 الجهاد منهى عنه وكذلك الموالاة والمعاداة وقد تحصل للعبد فتنة
 يشغل مشغى عنه وهو يظن انه نظر عبرة وقد يؤمر بالجهاد فيظن
 أن ذلك نظر فتنة كالذين قال الله تعالى فيهم (ومنهم من يقول
 ائذن لى ولا تفتنى) الآية فانها نزلت فى الجذ بن قيس لما امره
 النبى صلى الله عليه وسلم أن يتجهز لغزو الروم فقال انى عزم
 بالنساء واخاف الفتنة بنساء الروم فائذن لى فى القعود قال تعالى
 (الا فى الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين) .

فهذا ونحوه مما يكون باللسان من القول ، واما ما يكون من
 الفعل بالجوارح فكل عمل يتضمن محبة أن تشيع الفاحشة فى
 الدين آمنوا داخل فى هذا بل يكون عقابه أشد فان الله قد وعده
 بالعذاب على مجرد محبة أن تشيع الفاحشة بالعذاب الأليم فى
 الدنيا والآخرة وهذه المحبة قد لا يقتصر بها قول ولا فعل فكيف اذا
 اقترن قول أو فعل بل على الإنسان أن يفيض ما اقتضاه الله من
 فعل الفاحشة والقذف بها وأشاعتها فى الدين آمنوا ومن رضى
 عمل قوم حشر معهم كما حشرت امرأة لوط معهم ولم تكن تعمل
 فاحشة اللواط فان ذلك لا يقع من المرأة ولكنها لما رضىبت فعلهم
 معها العذاب معهم .

فمن هذا الباب قيل من أعان على الفاحشة وأشاعتها مثل

القواد الذي يقود النساء والصبيان الى الفاحشة لأجل ما يحصل
 لهم من رياسة أو سحت يأكله وكذلك أهل الصناعات التي تنفق
 بذلك المعنين وشربة الخمر وضمان الجهات السلطانية وغيرها فانهم
 يحبون أن تشيع الفاحشة ليتمكنوا من دفع من ينكرها من المؤمنين
 بخلاف ما اذا كانت قليلة خفيفة خفية ؛ ولا خلاف بين المسلمين
 ان ما يدعو الى معصية الله وينهى عن طاعته منهي عنه محرم بخلاف
 عكسه فانه واجب كما قال تعالى (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء
 والمنكر ولذكر الله أكبر) أي ان ما فيها من طاعة الله وذكره وامثال
 امره أكبر من ذلك وقال في الخمر والمير (ويصلحكم عن ذكر
 الله وعن الصلاة) أي يوقعهم ذلك في معصيته التي هي العداوة
 والبغضاء وهذا من أعظم المنكرات التي تنهى عنه الصلاة ، والخمر
 تدعو الى الفحشاء والمنكر كما هو الواقع فان شارب الخمر تدعو
 نفسه الى الجماع حلالا كان أو حراما فانه تعالى لم يذكر الجماع
 لان الخمر لا تدعو الى الحرام بعينه من الجماع فيأتي شارب الخمر
 ما يمكنه من الجماع سواء كان حلالا أو حراما ، والسكر يزيل
 العقل الذي كان يميز السكران به بين الحلال والحرام ، والعقل
 الصحيح ينهى عن موازنة الحرام ، ولهذا يكثر شارب الخمر من
 موازنة الفواحش مالا يكثر من غيرها حتى ربما يقع على ابنته وابنة
 ومহারمه وقد يستغنى بالحلال اذا أمكنه ، ويدعو شارب الخمر الى
 أكل أموال الناس بالباطل من سرقة ومخاربة وغير ذلك لانه يحتاج
 الى الخمر وما يستتبعه من مأكول وغيره من فواحش وغناء ،
 وشرب الخمر يظهر أسرار الرجال حتى يتكلم شاربها بما في باطنه
 وكثير من الناس اذا أرادوا استفهام ما في قلوب الرجال من الأسرار
 يستقونهم الخمر وربما يشربون معهم مالا يسكرون به ، وأيضا
 فالخمر تصد الإنسان عن علمه وتدابيره ومصلحته في معاشه ومعاده

وجميع أموره التي يديرها برأيه وعقله فجميع الأمور التي تصد عنها الخمر من المصالح وتوقعها من المفسد داخلة في قوله تعالى (ويصدقكم عن ذكر الله وعن الصلاة) .

وكذلك إيقاع العداوة والبغضاء هي منتهى قصد الشيطان . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « إلا اليكُم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة والإمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا بلى يا رسول الله قال : إصلاح ذات البين فإن فساد ذات البين هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » وقد ذكرنا في غير هذا الموضع أن الفواحش والظلم وغير ذلك من الذنوب توقع العداوة والبغضاء وإن كل عداوة أو بغضاء فاصلها من معصية الله والشيطان بأمر بالمعصية ليسوقع فيما هو أعظم منها ولا يرضى بغاية ما قدر على ذلك . وأيضاً فالعداوة والبغضاء شر محض لا يحبها عاقل بخلاف المصالح فإن فيها لذة كالخمر والفواحش فإن النفوس تريد ذلك والشيطان يدعو إليها النفوس حتى يوقعها في شر لا تهواه ولا تريد والله تعالى قد بين ما يريد الشيطان بالخمر والميسر ولم يذكر ما يريد الإنسان .

ثم قال في سورة التور (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر) وقال في سورة البقرة (لا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) فنهى عن اتباع خطواته وهو اتباع أمره بالاعتداء والاتباع وأخبر أنه يأمر بالفحشاء والمنكر والقول على الله بلا علم . وقال فيها (الشيطان يعدكم الفقر ويأمر بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً) فالشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر والسوء والله

بعد المغفرة والفضل ويأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى
وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى : وقال عن نبيه (يأمرهم
بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم
الخبائث ويضع عنهم أصرهم والأغلال التى كانت عليهم) وقال عن
أمته (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) .

وذكر مثل ذلك فى مواضع كثيرة فتسارة يخص اسم المنكر
بأنهى وتارة يقرئه بالفحشاء وتارة يقرن معهما البغى : وكذلك
المعروف تارة يخصه بالأمر وتارة يقرن به غيره كما فى قوله تعالى
(لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو
إصلاح بين الناس) وذلك لأن الأسماء قد يكون عمومها وخصوصها
بحسب الأفراد والتركيب كلفظ الفقير والمكين فإن أحدهما إذا
أفرد كان عاماً لما يدلان عليه عند الاقتران بخلاف اقترانهما فإنه
يكون معنى كل منهما ليس هو معنى الآخر بل أخص من معناه
عند الأفراد وأيضاً فقد يعطف على الاسم العام بعض أنواعه على
مسيل التخصص ثم قد قيل أن ذلك المخصص يكون مذكوراً
بالمعنى العام والخاص فإذا عرفت هذا فاسم المنكر يعم كل ما كرهه
الله ونهى عنه وهو المبغض : واسم المعروف يعم كل ما بحبه الله
وبرضاه ويأمر به فحيث أفردا بالذكر فأنهما يعلمان كل محبوب فى
الدين ومكروه وإذا قرن المنكر بالفحشاء فإن الفحشاء مبهاها على
المحبة والشهوة والنكر هو الذى تنكره القلوب فقد يظن أن ما فى
الفاحشة من المحبة يخرجها عن الدخول فى المنكر وإن كانت مما
تنكرها القلوب فإنها تشتهىها النفوس والمنكر قد يقال أنه يعم معنى
الفحشاء وقد يقال خصت لقوة مقتضى لما فيها من الشهوة وقد
يقال قصد بالنكر ما ينكر مطلقاً والفحشاء لكونها تشتهى وتحب :
وكذلك البغى قرن بها لأنه أبعد عن محبة النفوس ولهذا كان جنس
عذابه صاحبها أعظم من جنس عذابه صاحب الفحشاء ومنشؤه من

قوة الغضب كما أن الفحشاء تنشؤها عن قوة الشهوة ولكل من
النفوس لذة بحصول مطلوبها قالوا حش والبغى مقرونان بالنكر
وأما الاشرار والقول على الله بلا علم فإنه منكر محض ليس في
النفوس ميل اليهما بل إنما يكونان عن عناد وظلم فهما منكر وظلم
محض بالفطرة .

فهذه الخصال فساد في القوة العملية والعملية فالصلاة تنهى
عن الفحشاء والمنكر ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر
بالفحشاء والمنكر سواء كان الضمير عائداً إلى الشيطان أو إلى من
يتبع خطوات الشيطان فإن من أتى الفحشاء والمنكر فإن كان
الشيطان أمره فهو متبعمه مطيعه عابد له وإن كان الاتى هو الأمر
فالامر بالفعل أبلغ من فعله فمن أمر بها غيره رضيها لنفسه .

ومن الفحشاء والمنكر استماع العبد حرامير الشيطان والغنى
هو مؤذنه الذي يدعو إلى طاعته فإن الغناء رقية الزنا وكذلك من
اتباع خطوات الشيطان القول على الله بلا علم (قل أن الله لا يأمر
بالفحشاء اتقولون على الله ما لا تعلمون) وهذه حال أهل البدع
والفجور وكثير ممن يستحل مؤاخاة النساء والمردان واحضارهم
في سماع الغناء ودعوى محبة صورهم لله وغير ذلك مما فتن به
كثير من الناس فصاروا ضالين مضلين ثم أنه سبحانه تهي المظالم
بالقدف أن يمنع ما ينبغي له فعله من الأحسان إلى ذوي قرابته
والمساكين وأهل التوبة وأمره بالمعروف والصفح فإنهم كما يحبون أن
يقفر الله لهم فليعتقوا وليصغحوا وليغفروا ولا ريب أن صلة الأرحام
واجبة وإيذاء المساكين واجب وإماتة المهاجرين واجب فلا يجوز

ترك ما يجب من الإحسان للإنسان بمجرد ظلمه وأساءته في عرضه
كما لا يمنع الرجل ميراثه وحقه من الصدقات والفقراء بمجرد ذنب
من الذنوب وقد يمنع من ذلك لبعض الذنوب .

وفي الآية دلالة على وجوب الصلة والنفقة وغيرها لذوي الأرحام
الذين لا يرثون يفرض ولا تعصيب فإنه قد ثبت في الصحيح عن
عائشة في قصة الإفك أن أبا بكر الصديق حلف أن لا يتفق على
مسطح بن أثانة وكان أحد الخائضين في الإفك في شأن عائشة
وكانت أم مسطح بنت خالة أبي بكر وقد جملة الله من ذوي القربى
الذين نهى عن ترك أيتانهم والنهي يقتضي التحريم فإذا لم يجوز
الحلف على ترك الفعل كان الفعل واجبا لأن الحلف على ترك
الجبائيل جائز .

براءة القاذف

قال الله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة) وقال فيها (والذين يرمون أزواجهن ثم يأتوا بأربعة شهداء) الآية وقال فيها (لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء) فذكر عدد الشهداء وأطلق صفتهم ولم يقيدهم بكونهم مناوئاً ممن نرضى ولا من ذوي العدل كما قيد صفة الشهداء في غير هذا الموضع ولهذا تنازع العلماء هل شهادة الأربعة التي يجب بها الحد على الزاني مثل شهادة أهل الفسوق والعصبان وغيرهم هل يدرأ الحد عن القاذف على قولين في مذهب أحمد أحدهما أنها تدرأ الحد عن القاذف وإن لم توجب حد الزنا على المقلوف كشهادة الزوج على امراته أربع شهادات بالله فإن ذلك يدرأ حد القذف ولا يجب الحد على امراته لمجرد ذلك لأنها تدفع العذاب عنها بشهادتها أربع شهادات ولو لم تشهد فهل تحد أو تحبس حتى تقر أو تلعن أو يخلى سبيلها فيه نزاع مشهور بين العلماء فلا يلزم من درء الحد عن القاذف وجوب حد الزنا على المقلوف فإن كليهما حد والحدود تدرأ بالشبهات والأربع شهادات للقاذف شبهة قوية ولو اعترف المقلوف مرة أو مرتين أو ثلاثاً بدرى الحد عن القاذف ولم يجب الحد عنها عند أكثر العلماء ولو كان المقلوف غير محصن مثل أن يكون مشهوراً بالفاحشة لم يحد قاذفه حد القذف ولم يحد هو حد الزنا لمجرد الاستفاضة وإن كان يعاقب كل منهما دون الحد وقد اعتبر نصيب حد الزنا بأربعة

شهداء وكذلك تعتبر صفاتهم فلا يقام حد الزنا على مسلم الا بشهادة مسلمين لكن يقال لم يقيدهم بان يكونوا عدولا مرضيين كما قيدهم في آية الذين يقولون (ممن ترضون من الشهداء) وقال في آية الرجمة (واشهدوا ذوي عدل منكم واقبموا الشهادة لله) فقد أمرنا الله سبحانه بان نحمل الشهادة المحتاج اليها لاهل العدل والرضا وهؤلاء هم المعتدلون ما أمرهم الله به بقوله (يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنيا او فقيرا ذاك اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا) الآية وفي قوله (واذا قلتم قاعدلوا ولو كان ذا قربى) وقوله (ولا تكنموا الشهادة) وقوله (ولا ياب الشهداء اذا ما دعوا) وقوله (والذين هم بشهاداتهم قائمون فهم يذمومون بالشهادة بالقسط لله فيحصل مقصود الذين استشهدوا .

الوجه الثاني ان كون شهادتهم مقبولة مسبوقة لانهم اهل العدل والرضى فدل على وجوب ذلك في القبول والاداء وقد نهى سبحانه عن قبول شهادة الفاسق بقوله (ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) الآية لكن هذا نص في ان الفاسق الواحد يجب التبين في خبره واما الفاسقان فصاعدا فالادلة عليه تحتاج الى مقدمة اخرى وما ذكروه من عدالة الشهود لا يعتبر في الحكم بانفساق العلماء في مواضع وعند جمهورهم قد يحكم بلا شهود في مواضع عند النكول والرد ونحو ذلك ويحكم بشاهد ويمين كما مضت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قضى بشاهد ويمين رواد ابو داود وغيره من حديث ابي هريرة : ورواه مسلم من حديث ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى بشاهد ويمين : ورواه غيرهما ويدل على مثل هذا ان الله لم يعتبر عند الاداء حسدا القييد لا في آية الزنا ولا في آية القذف بل قال

(فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) وقال (والذين يرمون المحصنات
 ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) وإنما أمر بالتثبيت عند خبر الفاسق
 الواحد ولم يأمر به عند خبر الفاسقين ، فإن خبر الاثنين يوجب
 من الاعتقاد ما لا يوجب خبر الواحد ولهذا قال العلماء إذا استرأب
 الحاكم في الشهود فرقمهم وسألهم عن مكان الشهادة وزمانها
 وصفها وتحملها وغير ذلك مما يتبين به اتفاقهم واختلافهم .

وقوله تعالى (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا) فهذا نص في أن
 هؤلاء القاذبة لا تقبل شهادتهم أبدا واحدا كانوا أو عددا بل لفعل
 الآية ينتظم العدد على سبيل الجمع والبدل لأن الآية نزلت في أهل
 الأفك باتفاق أهل العلم والحديث والفقه والتفسير وكان الذين
 قذفوا عائشة عددا ولم يكونوا واحدا لما رأوها قد قدمت صحبة
 صفوان بن العطل السلمي بعد قفول العسكر وكانت قد ذهبت
 تطلب فلادة لها عدت فرجع أصحاب الهودج هودجها معتقدين أنها
 فيه لخفتها ولم تكن فيه فلما رجعت لم تجد أحدا من الجيش
 فكشفت مكانها وكان صفوان قد تخلف وراء الجيش فلما رآها
 امرض بوجهه عنها وأناخ راحلته حتى ركبها ثم ذهب بها إلى
 العسكر فكانت خلوته بها للضرورة كما يجوز للمرأة أن تسافر بلا
 محرم للضرورة كسفر الهجرة مثل ما قدمت أم كلثوم بنت عقبة
 ابن أبي معيط مهاجرة وقصة عائشة .

وقد دلت الآية على أن القاذبين لا تقبل شهادتهم مجتمعين ولا
 متفرقين . ودلت أيضا على أن شهادتهم بعد التوبة مقبولة كما
 هو مذهب الجمهور فإنه كان من جملتهم مسطح بن أثانة وحسان
 بن ثابت كما في الصحيح من عائشة وكان منهم حمزة بنت جحش
 وغيرها ومعلوم أنه لم يرد النبي صلى الله عليه وسلم ولا المسلمون
 بعده شهادة أحد منهم لأنهم كلهم تابوا لما نزل القرآن ببرائتها
 ومن لم يتب حينئذ فإنه كافر مكذب بالقرآن وهؤلاء ما زالوا

مسلمين وقد نهى الله عن قطع صلّتهم ولو ردت شهادتهم بعد
 التوبة لاستفاض ذلك كما استفاض رد عمر شهادته أبي بكر
 وقصة عائشة كانت أعظم من قصة المغيرة لكن من رد شهادة
 القاذف بعد التوبة قد يقول رد شهادة من حد في القذف وهؤلاء
 لم يحدوا : والأولون يجيبون بأجوبة أحدها أنه قد روي في السنن
 أن النبي صلى الله عليه وسلم حد أولئك : والثاني أن هذا الشرط
 غير معتبر في ظاهر القرآن وهم لا يقولون به كما هو مقرر في موضعه
 والثالث أن الذين اعتبروا الحد اعتبروه وقالوا قد يكون القاذف
 صادقا وقد يكون كاذبا فأمرأى المذوف عن طلب حد القذف قد
 يكون لصدق القاذف فإذا طلب الحد ولم يأت القاذف بأربعة
 شهداء ظهر كذبه ومعلوم أن الذين قذفوا عائشة ظهر كذبهم أعظم
 من ظهور كذب كل أحد فإن الله هو الذي يراها بكلامه الذي أنزله
 من فوق سبع سموات يتلى فإذا كانت شهادتهم بعد توبتهم مقبولة
 فشهادة غيرهم ممن شهد على غيرها أولى بالقبول : وقصة عمر بن
 الخطاب التي حكم فيها بين المهاجرين والأنصار في شأن المغيرة لما
 شهد عليه ثلاثة بالزنا وتوقف الرابع عن الشهادة فجلد أولئك
 الثلاثة ورد شهادتهم دليل على الفصلين جميعا كما دلت قصة
 عائشة على قبول شهادتهم بعد التوبة والجلد لأن اثنين من الثلاثة
 تابا فقبل عمر والمسلمون شهادتهما والثالث وهو أبو بكر مع كونه
 من أفضلهم لم يتب فلما لم يتب لم يقبل المسلمون شهادته وكان
 من صالحى المسلمين وقد قال عمر تب قبل شهادتك لكن إذا كان
 القرآن قد بين أن القذف أن لم يأتوا بأربعة شهداء لم تقبل شهادتهم
 أبدا ثم قال بعد ذلك (وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا)
 فمعلوم أن قوله (وأولئك هم الفاسقون) وصف ذم لهم نأى على
 ما ذكره من رد شهادتهم :

وأما تفسير العدالة المشروطة في هؤلاء الشهداء فانها الصلاح في الدين والمروءة والصلاح في أداء الواجبات وترك الكبيرة والاصرار على الصغيرة والصلاح في المروءة استعمال ما يجمعه ويزينه واجتناب ما يذنبه وبشئيه فاذا وجد هذا في شخص كان عدلا في شهادته وكان من الصالحين الأبرار وأما أنه لا يستشهد أحد في وصية أو رجعة في جميع الامكنة والأزمدة حتى يكون بهذه الصفة فليس في كتاب الله وسنة رسوله ما يدل على ذلك بل هذا صفة المؤمن الذي اكمل إيمانه بأداء الواجبات وإن كان المستحبات لم يكملها ومن كان كذلك كان من أولياء الله المتقين .

ثم ان القائلين بهذا قد يقرون الواجبات بالصلوات الخمس ونحوها بل قد يجب على الإنسان من حقوق الله وحقوق عباده ما لا يحصى إلا أنه تعالى مما يكون تركه أعظم أثما من شرب الخمر والزنا ومع ذلك لم يجعلوه قادحا في عدالته أما لعدم استشعار كثرة الواجبات وأما لا لتفاتهم إلى ترك السيئات دون فعل الواجبات وليس الأمر كذلك في الشريعة وبالجملة هذا معتبر في باب الثواب والعقاب والمدح والذم والموالة والمعادة وهذا امر عظيم .

وأما قول من يقول الأصل في المسلمين العدالة فهو باطل بل الأصل في بني آدم الظلم والجهل كما قال تعالى (وحملها الإنسان) أنه كان ظلوما جهولا (ومجرد التكلم بالشهادتين لا يوجب انتقال الإنسان عن الظلم والجهل إلى العدل وباب الشهادة مداره على أن يكون الشهيد مرضيا أو يكون ذا عدل بشحري القسط والعدل في أقواله وأفعاله والصدق في شهادته وخبره وكثيرا ما يوجد هذا مع الأخلاق الكثير من تلك الصفات كما أن الصفات التي اعتبروها كثيرا ما توجد بدون هذا كما قد رأينا كل واحد من الصنفين كثيرا لكن يقال ان ذلك مظنة الصدق والعدل والمقصود من الشهادة ودليل عليها وعلامة لها فان النبي صلى الله عليه وسلم

قال في الحديث المتفق على صحته « عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة » الحديث الى آخره .
 فالصدق مستلزم للبر كما أن الكذب مستلزم للفجور فإذا رجعنا
 الى المألوف وهو تحريم الصدق وجد اللازم وهو البر وإذا انتفى اللازم
 وهو البر انتفى المألوف وهو الصدق وإذا وجد الكذب وهو المألوف
 وجد الفجور وهو اللازم وإذا انتفى اللازم وهو الفجور انتفى المألوف
 وهو الكذب فلهذا استدل بعدم بر الرجل على كذبه وبعدم فجوره
 على صدقه .

فالمثل الذي ذكره الفقهاء من انتفى فجوره وهو اتيان الكبيرة
 والأصرار على الصغيرة وإذا انتفى ذلك فيه انتفى كذبه الذي يدعوه
 الى الفجور والفاستق هو من عدم بره وإذا عدم بره عدم صدقه
 ودلالة هذا الحديث مبنية على أن الداعي الى البر يستلزم البر
 والداعي الى الفجور يستلزم الفجور فالخطا كالتسبيح والعمد
 كالكذب والله اعلم .

حرمات الآخرين

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتنا غير بيوتكم حتى تستأسوا وتسلموا على أهلها) الآيات إلى قوله (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنما جعل الاستئذان من أجل النظر » والنظر انتهى عنه هو نظر العورات ونظر الشهوات وإن كانت من العورات والله سبحانه ذكر الاستئذان على نوعين ذكر في هذه الآية أحدهما وفي الآيتين في آخر السورة النوع الثاني وهو استئذان الصغار والمالك كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكتم أيما نكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن) فأمر باستئذان الصغار والمالك حين الاستيقاظ من النوم وحين ارادة النوم وحين القائلة فإن في هذه الاوقات تبدو العورات كما قال تعالى (ثلاث عورات لكم)

وفي ذلك ما يدل على أن المملوك المميز والمميز من الصبيان ليس له أن ينظر إلى عورة الرجل كما لا يحل للرجل أن ينظر إلى عورة الصبي والمملوك وغيرهما وأما دخول هؤلاء في غير هذه الاوقات بشر استئذان فهو مأخوذ من قوله تعالى (ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم ببعضكم على بعض) وفي ذلك دلالة على

ان الطوائن يرخص فيهم ما لا يرخص في غير الطوائن عليكم
 والطوافات والطواف من يدخل بغير إذن كما تدخل الهرة وكما
 يدخل الصبي والملوك : واذا كان هذا في الصبي المميز فغير المميز
 أولى ويرخص في طهارته كما قال ذلك طائفة من الفقهاء من اصحاب
 احمد وغيرهم في الصبيان والهره وغيرهم انهم ان اصابتهم نجاسة
 انها تطهر بمرور الريق عليها ولا تحتاج الى غسل لانهم من الطوائن
 كما اخبر به الرسول في الهرة مع طعمه انها تاكل القارة ولم تكن
 بالمدينة مياه ترددها السنائر ليقل طهر فمها بورودها الماء فعلم
 ان طهارة هذه الافواه لا تحتاج الى غسل : فالاستئذان في اول
 السورة قبل دخول البيت مطلقا والتفريق في آخرها لاجل الحاجة
 لان الملوك والصغير طواف يحتاج الى دخول البيت في كل ساعة
 فسق استئذانه بخلاف المحتلم .

وقال تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا
 فروجهم ذلك اذكى لهم) الآية الى قوله (وتوبوا الى الله جميعا ايها
 المؤمنون لعلكم تفلحون) فامر الله سبحانه الرجال والنساء بالغض
 من البصر وحفظ الفرج كما امرهم جميعا بالتوبة وامر النساء
 خصوصا بالاستتار وان لا يبدن زينتهن الا لبعوثهن ومن استثناء
 الله تعالى في الآية فما ظهر من الزينة هو الشيايب الظاهرة فهذا
 لا جناح عليها في ابدائها اذا لم يكن في ذلك محذور آخر فان هذه
 لا بد من ابدائها وهذا قول ابن مسعود وغيره وهو المشهور عن احمد
 وقال ابن عباس الوجه واليدين من الزينة الظاهرة وهي الرواية
 الثانية عن احمد وهو قول طائفة من العلماء كالشافعي وغيره : وامر
 سبحانه النساء بارتداء الجلابيب لئلا يعرفن ولا يؤذين وهذا دليل

على القول الاول وقد ذكر عبدة السلماني وغيره ان نساء المؤمنين
كن يدين عليهن الجلابيب من فوق رؤوسهن حتى لا يظهر الا عيونهن
لاجل رؤية الطريق وثبت في الصحيح ان المرأة المحرمة تنهى عن
الانتقاب والقفازين وهذا مما يدل على ان النقاب والقفازين كانا
معروفين في النساء اللاتي لم يحرمن وذلك يقتضي سستر وجوههن
وايديهن وقد نهى الله تعالى عما يوجب العلم بالزينة الخفية بالسمع
او غيره فقال (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) وقال
(وليضربن بخمرهن على جيوبهن) فلما نزل ذلك عمد نساء المؤمنين
الى خمرهن فشققنهن وارخينها على اعناقهن والجيب هو شق في
طول القميص فاذا ضربت المرأة بالخمار على الجيب سترت عنقهما
وامرت بعد ذلك ان ترخي من جلبابها : والارشاء انما يكون اذا
خرجت من البيت فاما اذا كانت في البيت فلا تؤمر بذلك وقد ثبت
في الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل بصفيية قال
اصحابه ان رخي عليها الحجاب نهى من امهات المؤمنين وان لم
يضرب عليها الحجاب فهي مما ملكت يمينه فضرب عليها الحجاب
وانما ضرب الحجاب على النساء لئلا ترى وجوههن وايديهن
والحجاب مختص بالحرائر دون الامساء كما كانت سنة المؤمنين في
زمان النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ان الحرية تحتجب والامة
تبرز وكان عمر رضي الله عنه اذا رأى امة مختمرة ضربها وقال
اتشبهن بالحرائر اى لكاع فيظهر من الامة رأسها ويدها ووجهها
وقال تعالى (والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا فليس
عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير
لهن) فرخص للعجوز التي لا تطمع في النكاح ان تضع ثيابها فلا

تلقى عليها جلبابها ولا تحتجب وإن كانت مستثناة من الحرائر
لزوال الفسدة الموجودة في غيرها كما استثني السابغين غير أولى
الأربة من الرجال في اظهار الزينة لهم لعدم الشهوة التي تتولد منها
الفتنة وكذلك الامة اذا كان يخاف بها الفتنة كان عليها ان ترحى من
جلبابها وتحتجب ووجب غض البصر عنها ومنها : وليس في الكتاب
والسنة اباحة النظر الى عامة الاماء ولا ترك احتجابهن وابداء
زينتهن ولكن القرآن لم يأمرهن بها امر الحرائر والسنة فرق
بالفعل بينهما وبين الحرائر ولم يفرق بينهما وبين الحرائر بلقظ عام
بل كانت عادة المؤمنين أن تحتجب منهم الحرائر دون الاماء واستثنى
القرآن من النساء الحرائر القواعد فلم يجعل عليهن احتجاب
واستثنى بعض الرجال وهم غير أولى الأربة فلم يمتنع عن ابداء
الزينة الخفية لهم لعدم الشهوة في هؤلاء وهؤلاء فان استثني بعض
الاماء أولى وأحرى وهن من كانت الشهوة والفتنة حاصلة بترك
احتجابها وابداء زينتها وكما أن المحارم أبناء أزواجهن ونحوه ممن
فيه شهوة وثغف لم يجز ابداء الزينة الخفية له فالخطاب خرج
عاما على العادة فما خرج عن العادة خرج به عن نظائره فاذا كان في
ظهور الامة والنظر اليها فتنة وجب المنع من ذلك كما لو كانت في
غير ذلك : وهكذا الرجل مع الرجال والمرأة مع النساء لو كان في
المرأة فتنة للنساء وفي الرجل فتنة للرجال فكان الامر بالغض للناظر
من بصره متوجها كما يتوجه اليه الامر بحفظ فرجه فالاماء والصبيان
اذا كن حسنا تغطي الفتنة بالنظر اليهم كان حكمهم كذلك كما
ذكر ذلك العلماء : قال المروزي قلت لابي عبد الله يعني احمد بن
حنبل الرجل ينظر الى المملوك قال اذا خاف الفتنة لم ينظر اليه

كم نظرة القتل في قلب صاحبها البلاء وقال المروزي قلت لابي عبد الله
 رجل تاب وقال لو شرب ظهري بالسياط ما دخلت في مفصية الا
 انه لا يدع النظر فقال اي توبة هذه ؟ قال جرير سألت رسول الله
 صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فقال اصرف بصرك وقال ابن
 ابي الدنيا حدثني ابي وسيله قال حدثني ابراهيم بن هراسه عن
 عثمان بن صالح عن الحسن بن ذكوان قال لا تجالسوا اولاد الاغنياء
 فان لهم صورا كصور النساء وهم اشد فتنة من العذارى .

وهذا الاستدلال والقياس والتشبيه بالاذنى على الاعلى وكان
 يقال لا يبيت الرجل في بيت مع الغلام الامرد وقال ابن ابي الدنيا
 باسناده عن ابي سهل الصعلوكي قال سيكون في هذه الامة قوم يقال
 لهم اللوطيون على ثلاثة اصناف : صنف ينظرون ، وصنف يصافحون
 وصنف يعملون ذلك العمل ، وقال ابراهيم النخعي كانوا يكرهون
 مجالسة الاغنياء وابناء الملوك وقال مجالستهم فتنة انما هم بمنزلة
 النساء : ووقفت جارية لم ير احسن وجهها منها على بشر الحافي
 فسأله عن باب حرب فدلها ثم وقف عليه غلام حسن الوجه فسأله
 عن باب حرب فاطرق رأسه فرد عليه الغلام السؤال فغمض عينيه
 فقليل له يا ابا نصر جاءتك جارية فسألتك فأجبتهما وجاءك هذا الغلام
 فسألك فلم تكلمه فقال نعم يروي عن سفيان الثوري انه قال مع
 الجارية شيطان ومع الغلام شيطانان فخشيت على نفسي شيطانيه
 وروى ابو الشيخ القزويني باسناده عن بشراته قال احذروا هؤلاء
 الاحداث ، وقال فتح الموصلي صحبت ثلاثين شيخا كانوا يعدون من
 الابدال كلهم اوصاني عند مفارقتي له اتق صحبة الاحداث اتق
 معاشره الاحداث ، وكان سفيان الثوري لا يدع امرد يجالسه ، وكان

مالك بن انس يمنع دخول المرد مجلسه للسمع فاحتال هشام
فدخل في غمار الناس مستترا بهم وهو امرء فسمع منه ستة عشر
حديثاً فأخبر بذلك مالك فعضبه ستة عشر سوطاً فقال هشام ليعني
سمعت مائة حديث وضربني مائة سوط وكان يقول هذا علم انما
أخذناه عن ذوى اللحي والشيوخ فلا يحمله عنا الا امثالهم ، وقال
يحيى بن معين ما طمع امرء ان يصحبي ولا احمد بن حنبل في
طريق ، وقال أبو علي الروزبادي قال لي أبو العباس احمد بن
المؤدب يا أبا علي من أين أخذت صوفية مصرنا هذا الانس بالأحداث
وقد تصحبهم السلامة في كثير من الأمور فقال هيهات قد رأينا من
هو أقوى منهم إيماناً اذا رأى الحدث قد أقبل نفر منه كفراره من
الأسد وانما ذلك على حسب الأوقات التي تطلب الأحوال على أهلها
فيأخذها تصرف الطباع ما أكثر الخطأ ما أكثر الغلط ، قال الجعيد
أبن محمد جاء رجل إلى أحمد بن حنبل معه غلام امرء حسن الوجه
فقال له من هذا الفتي فقال الرجل أبني فقال لا تجيء به معك مرة
أخرى فلامه بعض أصحابه في ذلك فقال أحمد علي هذا رأينا
أشياءنا وبه أخبرونا عن أسلافهم ، وجساء حسن بن الرازي إلى
أحمد ومعه غلام حسن الوجه فتحدث معه ساعة فلما أراد ان
ينصرف قال له أحمد يا أبا علي لا تمش مع هذا الغلام في طريق فقال
يا أبا عبد الله انه ابن اختي قال وان كان لا يأتهم الناس فيك ، وروى
أبن الجوزي بإسناده عن سعيد بن المسيب قال اذا رأيتم الرجل يلح
بالنظر إلى الغلام الأمر فاتهموه ، وقد روى في ذلك احاديث مسندة
ضعيفة وحديث مرسل أجود منها وهو ما رواه أبو محمد الحلال ثنا
عمر بن شاهين ثنا محمد بن أبي سعيد المقرئ ثنا أحمد بن حنبل

المصطفى ثنا عباس بن محبوب ثنا أبو أصامة عن معاذ بن سفيان عن
الشعبي قال قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه
وسلم وفيهم غلام أمرد ظاهر الرضاعة فأجلسه النبي صلى الله عليه
وسلم وراء ظهره وقال كانت خطيئة داود في النظر : هذا حديث
منسك .

وأما المسندة فمنها ما رواه ابن الجوزي بإسناده عن أبي هريرة
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من نظر إلى غلام أمرد برية
حبسه الله في النار أربعين عاماً » وروى الخطيب البغدادي بإسناده
عن انس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تجالسوا
أبناء الملوك فإن الأنفس تشباق إليهم ما لا تشباق إلى الجواري
المواتق » إلى غير ذلك من الأحاديث الضعيفة .

وكذلك المرأة مع المرأة وكذلك محارم المرأة مثل ابن زوجها
وابنه وابن أخيها وابن أختها ومملوكها عند من يحمله محرماً متى
كان يخاف عليه الفتنة أو عليها توجه الاحتجاب بل وجب : ومثله
المواضع التي أمر الله تعالى بالاحتجاب فيها مظنة الفتنة : ولهذا
قال تعالى (ذلك أركى لهم) فقد تحصل الزكاة والطهارة بدون ذلك
لكن هذا أركى وإذا كان النظر والبروز قد انتفى فيه الزكاة والطهارة
لما يوجد في ذلك من شسهوة القلب والفتنة بالنظر كان ترك النظر
والاحتجاب أولى بالوجوب : ولا زكاة بدون حفظ الفرج من الفاحشة
لأن حفظه يتضمن حفظه عن الوطء به في الخروج والأديار ودون ذلك
وعن المباشرة ومن الغير له وكشفه للغير ونظر الغير إليه فعليه أن
يحفظ فرجه عن نظر الغير ومسه .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في حديث بهز بن حكيم عن أبيه

من جلده لما قال له يا رسول الله عوراتنا ما نأبئ منها وما ندر فقال
 « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك قال فإذا كان
 القوم بعضهم في بعض قال أن استطعت أن لا يرىنها أحد فلا يرىها
 قال فإذا كان أحدنا خاليا قال فإله أحق أن يستحي منه من الناس »
 وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم « أن تباشر المرأة المرأة في شعاع
 واحد وإن يباشر الرجل الرجل في شعاع واحد » « ونهى عن أن ينظر
 الرجل إلى عورة الرجل وأن تنظر المرأة إلى عورة المرأة » وقال
 « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر » وفي
 رواية « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من أنثى أمشى فلا تدخل
 الحمام إلا بمئزر » .

وقال العلماء يرخص للنساء في الحمام عند الحاجة كما يرخص
 للرجال مع غرض البصر وحفظ الفرج وذلك مثل أن تكون مريضة أو
 نساء أو عليها غسل لا يمكنها إلا في الحمام ، وأما إذا اعتادت الحمام
 وشق عليها تركه فهل يباح لها على قولين في مذهب أحمد وغيره
 أحدهما لا يباح والثاني يباح وهو مذهب أبي حنيفة واختاره ابن
 الجوزي وكما يتناول غرض البصر عن عورة الغير وما اشبهها من
 النظر إلى المحرمات فإنه يتناول الغرض عن بيوت الناس فبيوت الرجال
 يستر بدنه كما تستره ثيابه ؛ وقد ذكر مسيحاته غرض البصر وحفظ
 الفرج بعد آية الاستئذان وذلك أن البيوت سكرة كالشباب التي على
 اليدن كما جمع بين اللباسين في قوله تعالى (والله يجعل لكم مما تخلقوا
 ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر
 وسرابيل تقيكم بأسكم) فكل منهما وقاية من الأذى الذي يكون
 سموا مؤذيا كالحر والشمس والبرد وما يكون من بنى آدم من

النظر بالعين واليد وغير ذلك ، وقد ذكر في أول سورة النحل أصول
النعم وذكر هنا ما يدفع البرد فانه من المهلكات وذكر في اثناهما
تمام النعم وما يدفع الحر فانه من المؤذيات ثم قال (كذلك يتم
نعمته عليكم تسلمون) وفي الصحيحين عن ابن هريرة « انه سمع
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا اطلع في بيتك احسد ولم
تأذن له فحذفته بحصاة ففقت عينه ما كان عليك من جناح » وهذا
الخاص يفسر العام الذي في الصحيح عن عبد الله بن مغفل « انه رأى
رجلاً يحذف قال لا تحذف فان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى
نهى عن الحذف : « وقال انه لا يصاد به صيد ولا يتكأ به عدو
ولكنها تكسر السن وتفقأ العين » وفي الصحيحين عن سهل بن سعد
« ان رجلاً اطلع في حجرة في باب النبي صلى الله عليه وسلم ومع
النبي صلى الله عليه وسلم مدرى يحك بها رأسه فقال لو أعلم أنك
تنظر الى لطعت به في عينك أما جعل الاستئذان من أجل البصر » .
وقد ظن طائفة من العلماء ان هذا من باب دفع الصائل لأن
الناظر معتد بنظره فيدفع كما يدفع سائر البغاة ولو كان الأمر كما
قالوا لدفع بالأسهل فالأسهل ولم يجر قلع عينه ابتداء اذا لم يذهب
الا بذلك والنصوص تخالف ذلك فانه أباح أن تحذقه حتى تفقأ عينه
قبل أمره بالانصراف : وكذلك قوله « لو أعلم أنك تنظرني لطعت به
في عينك » فجعل نفس الناظر مبيحاً للطعن في العين ولم يذكر الأمر
له بالانصراف وهذا يدل على انه من باب المعاقبة له على ذلك حيث
جس هذه الجناية على حرمة صاحب البيت فله أن يفقأ عينه
بالحصاة والمدرى .

والنظر الى العورات حرام داخل في قوله تعالى (قل إنما حرم
رؤي الفواحش) وفي قوله (ولا تقربوا الفواحش) فان الفواحش وان
كانت ظاهرة في المباشرة بالفرج أو الدبر وما يتبع ذلك من اللامسة
والنظر وغير ذلك : وكما في قصة لوط (اتأتون الفاحشة ما سبقكم
بها من أحد من العالمين اتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون) وقوله

(ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة) والفاحشة ايضا تناول كشف العورة وان لم تكن في ذلك مباشرة كما قال تعالى (واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آيانا) وهذه الفاحشة هي طوافهم بالبيت عمرة وكان يقولون لا نظوف ثياب عصينا الله فيها الا الحمس فانهم كانوا يطوفون في ثيابهم وغيرهم ان حصل له ثياب من الحمس طاف فيها والا طاف عريانا وان طاف بشيابه حرمت عليه فالتساها فكانت تسمى ثقاء . وكذلك المرأة اذا لم يحصل لها ثياب جعلت يدها على فرجها ويدها الاخرى على ذبرها وطافت ونقول -

اليوم يبدو بعضه او كله ، وما بدا منه فلا احله

وقد سمي الله ذلك فاحشة وقوله في سياق ذلك (قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن) يتناول كشف العورة ايضا وابداها ويؤكد ذلك ان ابداء فعل التكاح باللفظ الصريح يسمى فحشاء وتفحشا فكشف الاعضاء والفعل للبصر فكشف ذلك للسمع وكل واحد من الكشفين يسمى وصفا كما قال عليه السلام « لا تنعت المرأة المرأة لزوجها » حتى كأنه ينظر اليها ويقال فلان يصف فلانا وثوب يصف البشرة ثم ان كل واحد من اظهار ذلك للسمع والبصر يساح للحاجة بل يستحب اذا لم يحصل المستحب او الواجب الا بذلك كقول النبي صلى الله عليه وسلم لما عن « انكثها » وكفوله « من تمرى بعزاء الجاهلية فعضوه يهن أبيه ولا تكونوا » .

والمقصود ان الفاحشة تتناول الفعل القبيح وتتناول اظهار الفعل واعضائه وهذا كما ان ذلك يتناول ما فحش وان كان بفقد نكاح كقوله تعالى (ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتا وساء مبيلا) فاخبر ان هذا النكاح فاحشة وقد قيل ان هذا من الفواحش الباطنة فظهر ان الفاحشة يتناول العقود الفاحشة كما تتناول الباشرة بالفاحشة فان قوله (ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء) يتناول العقد والوطء ، وفي

قوله (ما ظهر منها وما بطن) عموم لاتواع كثيرة من الأقوال والأفعال
وامر تعالى بحفظ الفرج مطلقا بقوله (وبحفظوا فروجهم) وبقوله
(والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم)
الآيات ، وقال (والحافظون لفروجهم والحافظات) فحفظ الفرج
مثل قوله (والحافظون لحدود الله) وحفظها هو صرفها مما لا يحل
وأما الإبصار فلا بد من فتحها والنظر بها وقد يفجأ الإنسان ما ينتظر
إليه بغير قصد فلا يمكن غضها مطلقا ولهذا أمر تعالى عباده بالغض
منها كما أمر لقمان ابنه بالغض من صوته ، وأما قوله تعالى (أن
الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله) الآية فإنه مدحهم على غض
الصوت عند رسوله مطلقا فهم مأمورون بذلك يتهون عن رفع
الصوت عنده صلى الله عليه وسلم ، وأما غض الصوت مطلقا عند
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فهو غض خاص ممدوح ويمكن
العبد أن يغض صوته مطلقا في كل حال ولم يؤمر العبد به بل يؤمر
برفع الصوت في مواضع أما أمر بإجباب أو استحباب فلهذا قال
(واغضض من صوتك) فإن الغض في الصوت والبصر جماسع ما
يدخل إلى القلب ويخرج منه فبالسمع يدخل القلب وبالصوت
يخرج منه كما جمع العضوين في قوله (ألم نجعل له عينين ولسانا
وشفتين) فبالعين والنظر يعرف القلب الأمور واللسان والصوت
يخرج من عند القلب الأمور هذا رائد القلب وصاحب خبرة
وجاسوسة وهذا ترجمانه .

ثم قال تعالى (ذلك أزكى لهم وأطهر) وقال (خذ من أموالهم
صدقة تطهرهم وتزكهم بها) وقال (إنما يريد الله ليذهب عنكم
الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيرا) وقال في آية الاستئذان (وإن
قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) وقال (فاسألوهم من وراء
حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهم) وقال (ففسدوا بين يدي
تجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر) وقال النبي صلى الله عليه
وسلم « اللهم طهر قلبي من خطاياي بالماء والثلج والبرد » وقال

في دعاء الجنابة « وأغسله بماء وثليج وبرد وتقه من خطاياك كما ينقى
 الثوب الأبيض من الدنس » فالطهارة والله أعلم هي من الذنوب التي
 هي رجس والزكاة تتضمن معنى الطهارة التي هي عدم الذنوب
 ومعنى النماء بالأعمال الصالحة مثل المغفرة والرحمة ومثل النجاة
 من العذاب والفوز بالشواب ومثل عدم الشر وحصول الخير فإن
 الطهارة تكون من الأرجاس والانجاس وقد قال تعالى (إنما المشركون
 نجس) وقال (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) وقال (إنما الخمر
 والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان) وقال عن
 المنافقين (فأعرضوا عنهم إنهم رجس) وقال عن قوم لوط « ونجيناه
 وأهله من القرية التي كانت تعمل الخبائث » وقال اللوطية عن لوط
 وأهله (أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون) قال مجاهد عن
 أدبار الرجال : ويقال في دخول الفاني أعوذ بك من الخبث والخبائث
 ومن الرجس الرجس الخبيث المخبث وهذه النجاسة تكون من
 الشرك والنفاق والفواحش والظلم ونحوها وهي لا تزول إلا بالتوبة
 عن ترك الفاحشة وقيدها فمن تاب منها فقد تطهر وأما فهو متنجس
 وإن اغتسل بالماء من الجنابة فذاك الغسل يرفع حدث الجنابة
 ولا يرفع عنه نجاسة الفاحشة التي قد تنجس بها قلبه وباطنه
 فإن تلك نجاسة لا يرفعها الاغتسال بالماء وإنما يرفعها الاغتسال
 بماء التوبة النصوح المستمرة إلى الممات : وهذا معنى ما رواه ابن
 أبي الدنيا وغيره ثنا سويد بن سعيد ثنا مسلم بن خالد عن اسماعيل
 بن كثير عن مجاهد قال لو أن الذي يعمل يعني عمل قوم لوط
 اغتسل بكل قطرة في السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجسا
 ورواه ابن الجوزي : وروى القاسم بن خلف في كتاب ذم اللواط
 بإسناده عن الفضيل بن عياض أنه قال لو أن لوطيا اغتسل بكل
 قطرة نزلت من السماء للقي الله غير طاهر . وقد روى أبو محمد
 الخلال عن العباس الهاشمي ذلك مرثوما . وحديث إبراهيم عن
 هلقمة عن ابن مسعود اللوطيان لو اغتسلا بماء البحر لم يجزهما

إلا أن يتوباً ورفق مثل هذا الكلام منكر وإنما هو معروق من كلام
 السلف ، وكذلك روى عن أبي هريرة وابن عباس قالا خطبنا رسول
 الله صلى الله عليه وسلم فقال في خطبته « من تكح امرأة في دبرها
 أو غلاماً أو رجلاً حشر يوم القيامة اثنين من الجيفة يتأذى به الناس
 حتى يدخله الله نار جهنم ويحيطه الله عمله ولا يقبل منه صرفاً
 ولا عدلاً ويجعل في تابوت من نار ويسمى عليه بمسامير من حديد
 فتشك تلك المسامير في وجهه وجسده » قال أبو هريرة هذا إن لم
 يتب ، وذلك إن تارك اللواط متطهر كما دل عليه القرآن فقامه غير
 متطهر من ذلك فيكون متنجساً فإن هذه الطهارة النجاسة لكن
 النجاسة أنواع مختلفة تختلف أحكامها ومن ههنا غلط بعض الناس
 من اتفقوا فاتهم لما رأوا ما دل عليه القرآن من طلب طهارة الجنب
 بقوله (وإن كنتم جنباً فاطهروا) قالوا فيكون الجنب نجساً وقد
 ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة « إن النبي صلى الله عليه
 وسلم قال إن المؤمن لا يتنجس » لما اتخس منه وهو جنب وكره
 أن يجالسه فهذه النجاسة التي نفاها النبي صلى الله عليه وسلم
 هي نجاسة الطهارة بالماء التي ظنها أبو هريرة : والجنبية تمنع
 الملائكة أن تدخل بيتاً فيه جنب : وقال أحمد إذا وضع الجنب يده
 في ماء قليل انجس الماء فظن بعض أصحابه أنه أراد النجاسة
 الحية وإنما أراد الحكمة فإن الفرع لا يكون أقوى من الأصل
 ولا يكون الماء أعظم من البدن بل غاية أن يقوم به المانع الذي
 قام بالبدن والجنب ظاهر مشعور من الصلاة فيكون الماء كذلك
 ظاهراً لا يتوعد به للصلاة .

وأما الزكاة فهي متضمنة التماء والزيادة كالزروع وإن كانت
 الطهارة قد تدخل في معناها فإن الشيء إذا تنظف مما يفسده زكى
 وتما وصلح وزاد في نفسه كالزروع ينقى من الدغل قال الله تعالى
 (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله
 يزكى من يشاء) وقال (فارجعوا هو الزكى لكم) قال الرجوع عمل

صالح يزيد المؤمن زكاة وطهارة وقال (ذلكم اطهر اقلوبكم وقلوبهم)
 فان ذلك مجانية لأسباب التريية وذلك من نوع مجانية الذنوب
 والبعد عنها ومباعدتها فاحذر أن ذلك اطهر لقلوب الطائفتين ؛
 وأما الآية التي نحن فيها وهي قوله (قل للمؤمنين يغضوا من
 ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم) فالغض من البصر
 وحفظ الفرج يتضمن البعد عن تجاسة الذنوب ويتضمن الأعمال
 الصالحة التي يركونها الإنسان وهو أزكى ؛ والزكاة تتضمن الطهارة
 فان فيها معنى ترك السيئات ومعنى فعل الحسنات ولهذا غفر
 تارة بالطهارة وتارة بالزيادة والنماء ومعناها يتضمن الأمرين وان
 كان قرن الطهارة معها في الذكر مثل قوله (خذ من أموالهم صدقة
 تطهركم وتزكيهم بها) فالصدقة توجب الطهارة من الذنوب وتوجب
 الزكاة التي هي العمل الصالح كما أن الغض من البصر وحفظ الفرج
 هو أزكى لهم وهما يكونان باجتناب الذنوب وحفظ الجوارح ويكونان
 بالتوبة والصدقة التي هي الاحسان وهذان هما التقوى والاحسان
 (والله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وقد روى الترمذي
 وصححه « أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل ما أكثر ما يدخل
 الناس النار فقال الا جوفان الفم والفرج وسئل عن أكثر ما يدخل
 الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق » فيدخل في تقوى الله
 حفظ الفرج وغض البصر ويدخل في حسن الخلق الاحسان الى
 الخلق والامتناع من أبدانهم وذلك يحتاج الى الصبر ؛ والاحسان
 الى الخلق يكون عن الرحمة والله تعالى يقول (وتواصوا بالصبر
 وتواصوا بالرحمة) وهو سبحانه ذكر الزكاة هنا كما قدمها في
 قوله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد ابدا)
 فان اجتناب الذنوب يوجب الزكاة التي هي زوال الشر وحصول
 الخير والمفلحون هم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات كما
 وصفهم في أول سورة البقرة فقال (ألم ذلك الكتاب لأريب فيه هدى
 للمتقين) الآيات ؛ وقال (قد أفليح من زكاهها) فإذا كان قد أخبر أن

هؤلاء المفلحون وأخبر أن المفلحين هم المتقون (الذين يؤمنون بالغيب
ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) وأخبر أن من زكى نفسه
فهو مفلح دل ذلك على أن الزكاة تنظم الأمور المذكورة في أول سورة
البقرة وقوله (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) وقوله (فلا تزكوا
أنفسكم هو أعلم بمن اتقى) فالتركية من العباد لأنفسهم هي
أخبارهم عن أنفسهم بكونها زكية واعتقاد ذلك لا نفس جعلها
زكية : وقال تعالى عن إبراهيم (ربنا وأبعت فيهم رسولا منهم
يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) وقال (لقد
من الله على المؤمنين) الآية وقال (هو الذي بعث في الأميين رسولا
منهم) الآية فأمثن سبحانه على العباد بارساله في عدة مواضع هذه
أربعة أمور أرسله بها : تلاوة آياته : عليهم وتركيتهم وتعليمهم الكتاب
والحكمة : وقد أفرد تعليمه الكتاب والحكمة بالذكر مثل قوله
(وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به) وقوله (واذكرن
ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) وذلك أن التلاوة عليهم
وتركيتهم أمر عام لجميع المؤمنين فإن التسلاوة هي التبليغ اليهم
كلامه تعالى وهذا لا يد منه لكل مؤمن وتركيتهم هو جعل أنفسهم
زكية بالعمل الصالح الناشئ عن الآيات التي سمعوها وتليتها عليهم
فالأول سمعهم والثاني طاعتهم المؤمنون يقولون سمعنا وأطعنا الأول
علمهم والثاني عملهم والإيمان قول وعمل فإذا سمعوا آيات الله
وعوها بقلوبهم وأحبوها وعملوا بها ولم يكونوا كمن قال فيهم
(ومثل الذين كفروا كمثل الذي يمتع بما لا يسمع إلا دعاء ونداء
صم بكم عى فهم لا يعقلون) وإذا عملوا بها زكوا بذلك وكانوا من
المفلحين المؤمنين : والله قال (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين
أوتوا العلم درجات) وقال في ضدهم (الأعراب أشد كفرا ونفاقا
وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) فأخبر أنهم
أعظم كفرا ونفاقا وجهلا وذلك ضد الإيمان والعلم : فاستماع آيات
الله والتزكى بها أمر واجب على كل أحد فإنه لا يد لكل عبد من

سماح رسالة سيده التي ارسل بها رسوله اليه وهذا هو السماح
الواجب الذي هو اصل الايمان ولا بد من التزكي بفعل المأمور
وترك المحظور فهذان لا بد منهما .

وأما العلم بالكتاب والحكمة فهو فرض على الكفاية لا يجب على
كل احد بعينه أن يكون عالما بالكتاب لقوله ومعناه عالما بالحكمة
جميعها بل المؤمنون كلهم مخاطبون بذلك وهو واجب عليهم كما هم
مخاطبون بالجهاد بل وجوب ذلك أسبق وأؤكد من وجوب الجهاد
فانه أصل الجهاد ولولاه لم يعرفوا علام يقاتلون ولهذا كان قيسام
الرسول والمؤمنين بذلك قبل قيامهم بالجهاد فالجهاد سنام الدين
وفرعه وتمامه وهذا أصله وأساسه وعموده ورأسه ومقصوده
الرسالة فعل الواجبات والمستحبات جميعا ولا ريب أن استماع
كتاب الله والأيمان به وتحريم حرامه وتحليل حلاله والعمل بمحكمه
والإيمان بمتشابهه واجب على كل احد وهذا هو التلاوة المذكورة في
قوله (الذين آمنواهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به لا
فأخبر عن الذين يتلونه حق تلاوته أنهم يؤمنون به وبه قال سلف
الامة من الصحابة والتابعين وغيرهم وقوله (حق تلاوته) كقوله
(واجاهدوا في الله حق جهاده) (وانقوا الله حق نقائه) .

وأما حفظ جميع القرآن وفهم جميع معانيه ومعرفة جميع
السنة فلا يجب على احد لكن يجب على العبد أن يحفظ من القرآن
ويعلم معانيه ويعرف من السنة ما يحتاج اليه وهل يجب عليه أن
يسمع جميع القرآن فيه خلاف ولكن هذه المعرفة الحكيمة التي
يجب على كل عبد ليس هو علم الكتاب والحكمة التي علمها النبي
صلى الله عليه وسلم أصحابه وأمنه بل ذلك لا يكون الا بمعرفة
حدود ما أنزل الله على رسوله من الالفاظ والمعاني والأفعال والمقاصد
ولا يجب هذا على كل احد ، وقوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم هو
اعلم بمن اتقى) دليل على أن الزكاة هي التقوى والتقوى تنتظم

الامرين جميعا بل ترك السيئات مستلزم لفعل الحسنات اذ الانسان
 حارث همام ولا يدع ارادة السيئات وفعلها الا بارادة الحسنات
 وفعلها اذ النفس لا تغلو عن الارادتين جميعا بل الانسان بالطبع
 مريد فعال وهذا دليل على ان هذا يكون سببه الزكاة والتقوى
 التي بها يستحق الانسان الجنة كما في صحيح البخاري عن النبي
 صلى الله عليه وسلم انه قال « من تكفل لي بحفظ ما بين لحييه
 ورجليه اكفل له بالجنة » ومن تركى فقد اقلع فيدخل الجنة :
 والزكاة متضمنة حصول الخير وزوال الشر فاذا حصل الخير زال
 الشر من العلم والعمل حصل له نور وهدي ومعرفة وغير ذلك :
 والعمل يحصل له محبة والابة وخشية وغير ذلك : هذا لما ترك
 هذه المحظورات واتى بالمأمورات ويحصل له ذلك ايضا تدبرة وسلطانا
 وهذه صفات الكمال العلم والعمل والقادرة وحسن الارادة وقد
 جاءت الآثار بذلك والله يحصل لمن قضى بصره نور في قلبه ومحبة
 كما جرب ذلك العالمون العاملون : وفي مسند احمد حدثنا عتاب
 عن عبد الله وهو ابن المبارك ابا يحيى بن ايوب عن حبيب الله بن نوح
 عن علي بن يزيد عن القاسم عن ابي امامة عن النبي صلى الله عليه
 وسلم « قال : « هامن مسلم ينظر الى محاسن امرأة ثم يقض بصره
 الا اخلف الله له عبادة يجد حلاوتها » ورواه ابو بكر بن الانباري
 في اماليه من حديث ابي مريم عن يحيى بن ايوب به ولغظه « من
 نظر الى امرأة فقض بصره عند اول دفعة رزقه الله عبادة يجد
 حلاوتها » وقد رواه ابو نعيم في الحلية حدثنا ابي حدثنا ابراهيم
 ابن محمد بن الحسن حدثنا محمد بن يعقوب قال حدثنا ابو اليمان
 حدثنا ابو مهدي سعيد بن سنان عن ابي الزاهرية عن كثير بن مرة
 عن ابن عمر « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم النظر الاولى
 خطأ والثانية عمد والثالثة تدمر نظر المؤمن الى محاسن المرأة سهم
 مسوم من سهام ابليس من تركه خشية الله ورجاء ما عنده انايه
 الله تعالى بذلك عبادة تبلغه ثمنها » ورواه ابو جعفر الخرائطي في

كتاب اعتلال القلوب ثنا علي بن حرب ثنا اسحاق بن عبد الواحد
ثنا هشيم ثنا عبد الرحمن بن اسحاق عن معاذ بن دينار عن
جبلة بن خديجة بن اليمان قال « قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم انظر الى المرأة سهم مسموم من سهام ابليس من تركه خوفا
من الله اصابه الله ايمانا يجد خلاوته في قلبه » وقد رواه ابو محمد
الخلال من حديث عبد الرحمن بن اسحاق عن النعمان بن سعد
عن علي وفيه ذكر السهم « ورواه ابو نعيم ثنا عبد الله بن محمد
هو ابو التميمي ثنا ابن عفير قال ثنا شعيب بن سلمة ثنا عصمة
ابن محمد عن موسى يعني ابن عقبة عن القاسم بن محمد عن عائشة
قالت « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من عبد يكف بصره
عن محاسن امرأة ولو شاء ان ينظر اليها لتغتر الا ادخل الله قلبه
عبادة يجد خلاوتها » وروى ابن أبي الفوارس من طريق ابن الجوزي
عن محمد بن المسيب ثنا عبد الله قال حدثني الحسن بن مجاهد
قال غشي البصر عن محارم الله يورث حب الله وقد روى مسلم في
صحيحه من حديث يونس بن عبيد عن عمرو بن سعيد عن أبي روعة
بن عمرو بن جريس عن جده جريس بن عبد الله البجلي « قال سألت
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الشجاة فأمرني أن أصرف
بصري » ورواه الامام احمد عن حشيم عن يونس به ورواه ابو داود
والترمذي والنسائي من حديثه ايضا وقال الترمذي حسن
صحيح وفي رواية قال « أطرق بصرك » أي أنظر إلى الأرض
والصرف أعم فانه قد يكون إلى الأرض أو إلى جهة أخرى وقال
ابو داود حدثنا اسماعيل بن موسى الفزاري حدثنا شريك عن ربيعة
الايادي عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال « قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم لعلي يا علي لا تتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست
لك الاخرى » ورواه الترمذي من حديث شريك وقال غريب لا تعرفه
الا من حديثه « وفي الصحيح عن أبي سعيد قال « قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم اياكم والجلوس على الطرقات قالوا يا رسول

الله ما لنا به من مجالسنا نقعد فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ابيتم فاعطوا الطريق حقه قالوا وما حق الطريق يا رسول الله قال غرض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « وروى أبو القاسم البغوي عن أبي أمامة قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اكفلوا لي ستا اكفل لكم بالجنة اذا حدث احدكم فلا يكذب واذا ائتمن فلا يخن واذا وعد فلا يخلف غرضوا ابصاركم وكفروا ايديكم واحفظوا قروجكم « فالنظر داعية الى فساد القلب قال بعض السلف التنظر سهم سم الى القلب فلهذا امر الله بحفظ القروج كما امر بغض الابصار التي هي بواعث الى ذلك « وفي الطبراني من طريق عبيد الله بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعا « لتقطن ابصاركم ولتحفظن قروجكم ولتقيمن وجوهكم او لتكفين وجوهكم « وقال الطبراني حدثنا أحمد بن زهير التستري قال قرانا على محمد بن حفص بن عمر الضرير حدثنا المقرئ يحيى بن أبي كثير حدثنا هزيم ابن سفيان عن عبد الرحمن بن اسحاق عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه عن ابن مسعود قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان النظر سهم من سهام ابليس مسدوم فمن تركه من مخافة الله ابدله الله ايمانا يجد حلاوته في قلبه « وفي حديث أبي هريرة الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « زنا العيتين النظر « وذكر الحديث رواه البخاري تعليقا ومسلم مسندا واقد كانوا يتهون ان يجد الرجل بصره الى المردان وكانوا يتهمون من فعل ذلك في دينه : وقد ذهب كثير من العلماء الى انه لا يجوز للمرأة ان تنظر الى الاغنياء من الرجال بشهوة ولا بغير شهوة اصلا .

وأما النور والعلم فقد دل عليه قوله تعالى في قصة يوسف « ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين « ففي لكل محسن وفي هذه السورة ذكر آية النور بعد غرض البصر وحفظ الفرج وأمره بالتوبة مما لا يد مثله ان يترك ابن آدم من ذلك : وغال

أبو عبد الرحمن السلمي سمعت أبا الحسن الوراق يقول من غَض
بصره عن محرم أورثه الله بذلك حكمة على لسانه يهتدى بها ويهتدى
بها إلى طريق مرضاته وهذا لأن الجزاء من جنس العمل فإذا كان
النظر إلى محبوب فتركه لله عوضه الله ما هو أحب إليه منه وإذا
كان النظر يتور العين مكروها أو إلى مكروه فتركه الله أعطاه الله
توراً في قلبه ويصراً ببصره الحق ، قال شهاب الكرماني من غَض
بصره عن المحارم وعمر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة
وعود نفسه أكل الحلال وكف نفسه عن الشهوات لم تخطيء له
فراصة وإذا صلح علم الرجل تعرف الحق وعمله واتباع الحق صار
زكياً تقياً مستوجباً للجنة .

ويؤيد ذلك حديث أبي أمامة المشهور من رواية البغوي حدثنا
طالوت بن عبيد حدثنا فضالة بن جبير سمعت أبا أمامة يقول
« سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أكفلوا لي بسنة
أكفل لكم الجنة إذا حدث أحدكم فلا يكتب وإذا أُرثتم فلا يخن
وإذا وعد فلا يخلف غمضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا
قرواحكم » فقد كفل بالجنة لمن أتى بهذه الست خصال فالثلاثة
الأولى تبرئة من النفاق والثلاثة الأخر تبرئة من الفسوق والمخاطبون
مسلمون فإذا لم يكن متافقاً كان مؤمناً وإذا لم يكن فاسقاً كان تقياً
فيستحق الجنة : ويوافق ذلك ما رواه ابن أبي الدنيا حدثنا
أبو سعيد المدني حدثني عمر بن سهل المازني قال حدثني عمر بن
محمد بن صهيبان حدثني صفوان بن سليم عن أبي هريرة قال « قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم كل عين باكية يوم القيامة
إلا عين غضت عن محارم الله وعين سهرت في سبيل الله
وعين يخرج منها رأس الذباب من خشية الله » وقوله سبحانه
(ولا تمدن حيتيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا
لنفثهم فيه) يتناول النظر إلى الأموال واللباس والصور وغير ذلك
من متاع الدنيا أما اللباس والصور فهما اللذان لا ينظر الله إليهما
كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم

« قال ان الله لا ينظر الى صوركم ولا الى اموالكم وإنما ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » وقد قال تعالى (وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم احسن اثنا ورثيا) وذلك ان الله يمتنع بالصورة كى يمتنع بالاموال كلاهما من زهرة الحياة الدنيا وكلاهما يفتن اهله واصحابه وربما اقضى به الى الهلاك دنيا وأخرى والهلكى رجلان فمستطيع وماجز فالماجز مفتون بالنظر ومد العين اليه والمستطيع مفتون فيما اوتى منه غارق قد احاط به مالا يستطيع اتقاذ نفسه منه وهذا المنظور قد يعجب المؤمن وان كان المنظور متافقا او فاسقا كما يعجبه المسموع منهم قال تعالى (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قائلهم الله) فهذا تحذير من الله تعالى من النظر اليهم واستماع قولهم فلا ينظر اليهم ولا يسمع قولهم فان الله سبحانه قد أخبر أن رؤياهم تعجب النساظرين اليهم وان قواهم يعجب السامعين ثم أخبر عن فساد قلوبهم وأعمالهم بقوله (كأنهم خشب مسندة) فهذا مثل قلوبهم وأعمالهم وقال تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) الآية : وقد قال تعالى في قصة لوط (ان في ذلك لآيات للمتوسمين) والتوسم من السمة وهي العلامة فأخبر سبحانه أنه جعل عقوبات المتدين آيات للمتوسمين : وفي الترمذى عن النبي صلى الله وسلم « قال اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ (ان في ذلك لآيات للمتوسمين) فدل ذلك على أن من اعتبر بما عاقب الله به غيره من اهل الفواحش كان من المتوسمين .

وأخبر تعالى عن اللوطية أنه طمس ابصارهم فكانت عقوبة اهل الفواحش طمس الأبصار كما قد عرف ذلك فيهم وشوهة منهم ، وكان ثواب المتبرين بهم التاركين لأفعالهم إعطاء الأتوار وههنا مناسب لذكر آية النور عقيب قصص الأبصار ، وأما القوة والقدرة التي يعطيها الله لمن اتقاه وخالف هواه فذلك حاصل معروف كما

جاء ان الذي يترك هواه يفرق الشيطان من ظله : وفي الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم « قال ليس الشديد بالصرعة وانما الشديد من الذي يملك نفسه عند الغضب » وفي رواية « انه من يقوم يحدفون حجرا فقال ليس الشدة في هذا وانما الشدة في أن يمتليء أحدكم غيظا ثم يكظمه الله » أو كما قال .

وهذا ذكره في الغضب لأنه معتاد ليني آدم كثيرا ويظهر للناس وسلطان الشهوة يكون في الغالب مستورا عن أعين الناس وشيطانها خاف ويمكن في كثير من الأوقات الاعتياض بالحسنة عن الحرام والا فالشهوة اذا اشتعلت واستولت قد تكون أقوى من الغضب وقد قال تعالى (وخلق الانسان ضعيفا) أي ضعيفا في النساء لا يصبر هنهن وفي قوله (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) ذكروا منه المشفق والعشيق يفضي بأهله الى الأمراض والاهلاك وان الغضب قد يبلغ ذلك أيضا ، وقد دل القرآن على أن القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين الى الله في مواضع كثيرة كقوله في سورة هود (وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويردكم قوة الى قوتكم) وقوله (والله العزة وارسلوه وللمؤمنين) (ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين) وإذا كان الذي قد يهجر السيئات يفض بصره ويحفظ فرجه وغير ذلك مما نهى الله عنه يجعل الله له من النور والعلم والقوة والعزة ومحبة الله ورسوله فما ظنك بالذي لم يحجم حول السيئات ولم يعرفها طرفه قط ولم تحدثه نفسه بها بل هو يجاهد في سبيل الله أهلها ليمتلكوا السيئات فهل هذا وذاك سواء بل هذا له من النور والإيمان والعزة والقوة والمحبة والسلطان والنجاة في الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ذلك وحاله أعظم وأعلى ونوره أتم وأقوى فان السيئات تهواها النفوس ويزينها الشيطان فتجتمع فيها الشهوات والشهوات فاذا كان المؤمن قد حبيب الله اليه الإيمان وزينه في قلبه وكره اليه الكفر والفسوق والعصيان حتى يموض عن شهوات التي يحب الله

ورسوله وما يتبع ذلك وعن الشهوات والشبهات بالتور والهدى
واعطاء الله من القوة والقدرة ما آيده به حيث دفع بالعلم الجهل
وبارادة الحسنات ارادة السيئات وبالقوة على الخير القوة على
الشر في نفسه فقط والمجاهد في سبيل الله يطلب فعل ذلك في نفسه
وغيره أيضا حتى يدفع جهله بالظلم واراادته السيئات بارادة
الحسنات وتجو ذلك ، والجهاد تمام الايمان وستمام العمل كما قال
تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا
وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون)
وقال (كنتم خير أمة أخرجت للناس) الآية وقال (اجعلتم سقاية
الحاج) الآية فكذلك يكون هذا الجهد في حق المجاهدين كما قال
تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلا) فهذا في العلم والتور
وقال (ولو لنا كتبنا عليهم ان يقتلوا انفسكم) الى قوله (صراطا
مستقيما) فقتل النفوس هو قتل بعضهم بعضا وهو من الجهاد
والخروج من ديارهم هو الهجرة ثم اخبر انهم اذا فعلوا ما يوعظون
به من الهجرة والجهاد لكان خيرا لهم واشهد لنبيتنا : ففي الآية
اربعة أمور الخير المطلق والتثبيت المتضمن للقوة والمكنة والاجر
المظيم وهداية الصراط المستقيم : وقال تعالى (يا أيها الذين
آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقال (ولننصرن الله
من ينصره) الى قوله (عاقبة الأمور) وقال (يجاهدون في سبيل
الله ولا يخافون لومة لائم) .

وأما أهل الفواحش الذين لا يفيضون أبصارهم ولا يحفظون
فروجهم فقد وصفهم الله بضد ذلك من السكر والعمه والجهالة
وعدم العقل وعدم الرش والبخس وطس الابصار هذا مع

مَا وَصَفَهُمْ بِهِ مِنَ الْخِيَاثِ وَالْفُسُوقِ وَالْعُدْوَانِ وَالْأَسْرَافِ وَالسُّوءِ
وَالْفَحْشِ وَالْفُسَادِ وَالْإِجْرَامِ فَقَالَ عَنْ قَوْمٍ لَوْظُ (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ
تُجَاهِلُونَ) فَوَصَفَهُمْ بِالْجَهْلِ وَقَالَ (لَعَبْرُكُ أَنْتُمْ لَقِيَ سَكْرَتَهُمْ يَعْمَهُونَ)
وَقَالَ (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ) وَقَالَ (قَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ) وَقَالَ
(بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِئُونَ) وَقَالَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (
وَقَالَ (أَلَيْسَ كَانَ قَوْمٌ سَوَاءٌ فَاسِقِينَ) وَقَالَ (أَنْتُمْ لَنَّا تُونَ الرِّجَالُ
وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ) إِلَى قَوْلِهِ (أَتَصْرَتُ عَلَى
الْقَوْمِ الْمَفْسُودِينَ) إِلَى قَوْلِهِ (إِيْمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) وَقَوْلِهِ (مَسْؤَمَةٌ
عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ) .

التوبة

وبعض أنواع المعاصي

في قوله آخر الآية (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) فوائد جلية منها أن أمره لجميع المؤمنين بالتوبة في هذا السياق تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التي هي ترك غض البصر وحفظ الفرج وترك إبداء الزينة وما يتبع ذلك فمستقل ومستكثر كما في الحديث « ما من أحد من بني آدم إلا أخطأ أو هم بخطيئة إلا يحيى بن زكريا » وذلك لا يكون إلا عن نظر : وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه قال كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » وفي الصحيح عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى يا بني آدم تخطئون بالليل والنهار وإنما أغفر الذنوب جميعا ولا يأتي فاستغفروني أغفر لكم » وفي الصحيحين عن ابن عباس « قال ما رأيت شيئا أشبه بالعلم مما قال أبو هريرة « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال أن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فرأى العينين النظر ورأى اللسان النطق » الحديث إلى آخره وفيه « والنفس جنتي ذلك وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » أخرجه البخاري تعليقا من حديث طاووس عن أبي هريرة ورواه مسلم من

حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى
 الله عليه وسلم قال « كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا يدرك ذلك
 لا محالة العينان زناهما النظر والأذان زناهما الاستماع واللسان
 زناه الكلام واليدين زناهما البطش والرجلان زناهما الخطا والقلب
 يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه » وقد روى الترمذي
 حديثا واستغفر به عن ابن عباس في قوله إلا اللهم « قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ان تغفر اللهم تغفر جما وإي عبد لك لا إلها »
 ومنها ان أهل الفواحش الذين لم يعضوا ابصارهم ولم يحفظوا
 قرواحهم مأمورون بالتوبة وانما امروا بها لتقيل منهم فالتوبة مقبولة
 منهم ومن سائر المذنبين كما قال تعالى (ألم يعلموا ان الله هو
 يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) وقال تعالى (وهو الذي
 يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون) وسواء
 كانت الفواحش مغلظة لشدها وكثرتها كاتيان ذوات المحارم وصل
 قوم لوط أو غير ذلك وسواء تاب القاعل أو المفعول به فمن تاب
 تاب الله عليه بخلاف ما عليه ذلك طائفة من الناس فانهم اذا راوا
 من عمل من هذه الفواحش شيئا يسوء من رحمة الله حتى يقول
 أحدهم من عمل من ذلك شيئا لا يفلح أبدا ولا يرجون له قبول
 توبة ؛ ويروى عن علي أنه قال منا كذا ومنا كذا والمعقوج ليس منا
 ويقولون ان هذا لا يعود صالحا ولو تاب مع كونه مسلما مقسرا
 بتحريم ما فعل ، ويدخلون في ذلك من استكره على فعل شيء من
 من هذه الفواحش ويقولون لو كان لهذا عند الله خير ما سلط عليه
 من فعل به مثل هذا واستكرهه كما يفعل بكثير من المماليك طوعا
 وكرها وكما يفعل بأجراء أهل الصناعات طوعا وكرها وكذلك من

ل معصاهم من صبيان الكتاب وغيرهم ونسوا قوله تعالى
 (ولا تكرهوا غيبتكم على البغاة ان اردن تحصنا لتبتفوا عرض
 الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكرههن غفور رحيم)
 هؤلاء قد لا يعلمون صورة التوبة وقد يكون هذا حالا وعملا لاحدهم
 وقد يكون اعتقادا فهذا من اعظم الضلال والغي فان القنوط من
 رحمة الله بمنزلة الأمن من مكر الله تعالى وحالهم مقابل لحال
 مستحلي الفواحش فان هذا أمن مكر الله بأهلها وذاك قنط أهلها
 من رحمة الله ، والفقيه كل الفقيه هو الذي لا يؤيس الناس من
 رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله وهذا في اصل الذنوب الإرادية
 نظير ما عليه أهل الأهواء والبدع فان أحدهم يعتقد تلك السيئات
 حسنات فيأمن مكر الله وكثير من الناس يعتقد أن توبة المبتدع
 لا تقبل وقد قال تعالى (ان الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور
 الرحيم) وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال « كان رسول
 الله صلى الله عليه وسلم يسمى لنا نفسه أسماء فقال أنا محمد
 وأنا أحمد والمقفي والحاشي ونبي التوبة ونبي الرحمة » وفي حديث
 آخر « أنا نبي الرحمة وأنا نبي الملحة » وذلك أنه بعث بالملحة
 وهي المقتلة لمن عصاه وبالتوبة لمن أطاعه وبالرحمة لمن صدقه واتبعه
 وهو رحمة للعالمين وكان من قبله من الأنبياء لا يؤمن بقتال وكان
 الواحد من أممهم اذا اصاب بعض الذنوب يحتاج مع التوبة الى
 عقوبات شديدة كما قال تعالى (واذا قال موسى لقومه يا قوم انكم
 ظلمتم انفسكم باخذ العجل فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا انفسكم
 ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم) وقد روى عن أبي العالية
 وغيره ان أحدهم كان اذا اصاب ذنبا أصبحت الخطيئة والكفارة
 مكتوبة على يابه فانزل الله في حق هذه الأمة (والذين اذا فعلوا

نَاحِةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ (أَلَى قَوْلِهِ
 (نَعَمْ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) فَخَصَّ الْفَاحِشَةَ بِالذِّكْرِ مَعَ قَوْلِهِ (ظَلَمُوا
 أَنْفُسَهُمْ) وَالظُّلْمُ يَتَنَاوَلُ الْفَاحِشَةَ وَغَيْرَهَا تَحْقِيقًا لِمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قَبُولِ
 التَّوْبَةِ مِنَ الْفَوَاحِشِ مُطْلَقًا مِنَ الَّذِينَ يَأْتِيَانَهَا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
 جَمِيعًا ، وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « قَالَ إِنَّ اللَّهَ
 يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ
 مَسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ
 « إِنَّهُ قَالَ مَنْ تَابَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ »
 وَفِي السُّنَنِ عَنْهُ أَيْضًا « إِنَّهُ قَالَ لَا تَنْقُطُعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى تَنْقُطُعَ التَّوْبَةُ
 وَلَا تَنْقُطُعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » وَعَنْهُ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ « قَالَ الشَّيْطَانُ وَعِزَّتْكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرَحُ أُغْوِي بَنِي آدَمَ
 مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ قَتَالَ الرَّبُّ تَعَالَى وَهَزَمَنِي وَجَلَّالِي
 وَارْتِفَاعِ مَكَانِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي » وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ
 « قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ يَا ابْنَ يَا آدَمَ إِنَّكَ
 مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلَا أَبَالِي يَا ابْنَ آدَمَ
 لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَسَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي
 يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ لَقِيتَنِي بِقَرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تَشْرُكَ بِي
 شَيْئًا لَا تَيْتَنِي بِقَرَابِهَا مَغْفِرَةٌ » ١٥١

وَالَّذِي يَمْنَعُ تَوْبَةَ أَحَدٍ هَؤُلَاءِ أَمَّا بِحَالِهِ وَأَمَّا بِقَالِهِ وَلَا يَخْلُو مِنْ
 أَحَدٍ أَمْرَيْنِ أَنْ يَقُولَ إِذَا تَابَ أَحَدُهُمْ لَمْ تَقْبَلْ تَوْبَتَهُ وَأَمَّا أَنْ يَقُولَ
 أَحَدُهُمْ لَا يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى أَبَدَاءٍ وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَبَاطِلٌ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ
 نَبِيِّهِ وَاجْتِمَاعِ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فِي تَوْبَةِ الْقَاتِلِ
 وَتَوْبَةِ الدَّاعِي إِلَى الْبِدْعِ وَفِي ذَلِكَ نِزَاعٌ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ فِي مَذْهَبِهِ

مالك ايضا نزاع ذكره صاحب التمثيل والبيان في الجامع وغيره
وتكلموا ايضا في توبة الرنديق ونحو ذلك فهم قد يتنازعون في كون
التوبة في الظاهر تدفع العقوبة اما لعدم العلم بصحتها واما لكونها
لا تمنع ما وجب من الحد ولم يقل احد من الفقهاء ان الرنديق
وتحوه اذا تاب فيما بينه وبين الله توبة صحيحة لم يقبلها الله منه
واما القاتل والمضلل فذلك لاجل تعلق حق الغير به والتوبة من حقوق
العباد لها حال آخر وليس هذا موضع الكلام فيها وفي تفصيلها
وانما الغرض ان الله يقبل التوبة من كل ذنب كما دل عليه الكتاب
والسنة : والفواحي خصوصا ما علمت احدا نازع في التوبة منها
والزاني والمزني به مشتركان في ذلك ان تابا تاب الله عليهما وبين
التوبة خصوصا من عمل قوم لوط من الجائبين ما ذكره الله في قصة
لوط فانهم كانوا يفعلون الفاحشة بعضهم ببعض ومع هذا فقد دعاهم
جميعا الى تقوى الله والتوبة منها فلو كانت توبة المفعول به او غيره
لا تقبل لم يأمرهم بما لا يقبل قال تعالى (كذبت قوم لوط المرسلين
اذ قال لهم اخوهم لوط الا اتقون اني لكم رسول امين فاتقوا الله
واطاعون) فامرهم بتقوى الله المتضمنة لتوبتهم من هذه الفاحشة
والخطاب وان كان للفاعل فانه اتما خص به لانه صاحب الشهوة
والطلب في العادة بخلاف المفعول به فانه لم تخلق الشهوة فيه
شهوة لذلك في الاصل وان كان قد تعرض له لمرض طاريء او اجر
ياخله من الفاعل او تعرض آخر والله سبحانه وتعالى اعلم .

وفي قوله تعالى (ان الذين يرمون المحصنات الفاحشات المؤمنات
لنحرن في الدنيا والاخرة ولنعم عذاب عظيم) في طرده الكلام على
ما يتعلق بهذه الآية وفيها فقال واما الجواب المفصل فمن ثلاثة

اوجه ، احدها أن هذه الآية في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم
 خاصة في قول كثير من أهل العلم فروى هشيم عن العوام بن
 حوشب لنا شيخ من بني كاهل قال فسر ابن عباس سورة النور
 فلما أتى على هذه الآية (أن الذين يرمون المحصنات الغافلات
 المؤمنات) إلى آخر الآية قال هذه في شأن عائشة وزواج النبي
 صلى الله عليه وسلم خاصة وهي مبهمة ليس فيها توبة ومن قدف
 امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة ثم قرأ (والذين يرمون المحصنات
 ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) إلى قوله (إلا الذين تابوا من بعد ذلك
 وأصلحوا) فجعل لهؤلاء توبة ولم يجعل لأولئك توبة قال فهم رجل
 أن يقوم ويقبل رأسه من حسن ما فسر . وقال أبو سعيد الأشج
 حدثنا عبد الله بن خراش عن العوام بن سفيان عن جبير عن ابن عباس
 (أن الذين يرمون المحصنات الغافلات) نزلت في عائشة خاصة
 واللعنة في المتأقين عامة فقد بين ابن عباس أن هذه الآية إنما نزلت
 فيمن يقدف عائشة وأمهاة المؤمنين ولما في قدفهن من الطعن على
 رسول الله صلى الله عليه وسلم وعييه فإن قدف المرأة أذى لزوجها
 كما هو أذى لابنها لأنه نسبة له إلى الديانة وإظهار لفساد فراشه
 فإن زنا امرأته يؤذيه أذى عظيما ولهذا جوز له الشارع أن يقدفها
 إذا زنت ودرا الحد عنه باللعان ولم يبع لغيره أن يقدف امرأة بحال
 ولعل ما يلحق بعض الناس من العار والخزي بقدف أهله أعظم مما
 يلحقه لو كان هو المقدوف ، ولهذا ذهب الأصم أحمد في إحدى
 الروايتين المنصوصتين عنه إلى أن من قدف امرأة غير محصنة
 بكالامة والدمية وإلها زوج أو ولد محصن حد لقتلها لما الحقه من
 العار بولدها وزوجها المحصنين الرواية الأخرى عنه وهي قول

الاكثرين انه لا حد عليه لانه اذى لهما لا قذف لهما والحد انتام انما
 يجب بالقذف وفي جانب النبي صلى الله عليه وسلم اذى كقذفه ومن
 يقصد عيب النبي صلى الله عليه وسلم بعيب أزواجه فهو متافق
 وهذا معنى قول ابن عباس العنة في المتافقين عامة وقد وافق ابن
 عباس جماعة فروى الامام احمد والاشعج عن خنيس قال سألت
 سعيد بن جبير فقلت الزنا اشد او قذف المحصنة قال لا بل الزنا
 قال قلت فان الله تعالى يقول (ان الذين يرمون المحصنات الغافلات
 المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة) فقال انما كان هذا في عائشة
 خاصة : وروى احمد باسناده عن أبي الجوزاء في هذه الآية (ان
 الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة)
 فقال انما كان هذا في عائشة خاصة : وروى احمد باسناده عن أبي
 الجوزاء في هذه الآية (ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات
 لعنوا في الدنيا والآخرة) قال هذه الآية لامهات المؤمنين خاصة :
 وروى الاشعج باسناده عن الضحاک في هذه الآية قال هن نساء النبي
 صلى الله عليه وسلم فاما من رمى امرأة من المسلمين فهو فاسق كما
 قال الله تعالى (او يتوب) .

ووجه هذا ان لعنة الله في الدنيا والآخرة لا تستوجب بمجرده
 القذف فتكون اللام في قوله (المحصنات الغافلات المؤمنات) لتعريف
 المعهود والمعهود هنا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم لأن الكلام في
 قصة الافك ووقوع من وقع في أم المؤمنين عائشة او يقصر اللفظ
 العام على سببه للدليل الذي يوجب ذلك . ويؤيد هذا القول ان الله
 سبحانه رتب هذا الوعيد على قذف محصنات غافلات مؤمنات وقال
 في أول السورة (والذين يرمون المحصنات ثم لم ياتوا بأربعة شهود
 فاجلدوهم ثمانين جلدة) الآية فرتب الحدود والشهادة والفسق

على مجرد قذف المحصنات فلا بد ان تكون المحصنات القسافات
 المؤمنات لهن مزية على مجرد المحصنات وذلك والله اعلم لان ازواج
 النبي صلى الله عليه وسلم مشهود لهن بالايمان لانهن امهات المؤمنين
 وهن ازواج تبيهن في الدنيا والآخرة وعوام المسلمات انما يعلم منهن في
 الغالب ظاهر الايمان ولان الله سبحانه قال في قصة عائشة (والذي
 تولى كبره منهم له عذاب عظيم) فتخصيصه متولى كبره دون غيره
 دليل على اختصاصه بالعذاب العظيم : وقال (ولولا فضل الله عليكم
 ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما افضتم فيه عذاب عظيم)
 فعلم ان العذاب العظيم لا يمس كل من قذف وانما يمس متولى كبره
 فقط وقال هنا (ولهم عذاب عظيم) فعلم ان الذي رمى امهات
 المؤمنين يعيب بذلك رسوله صلى الله عليه وسلم وتولى كبره الاقل
 وهذه صفة المنافق ابن ابى والله اعلم انه على هذا القول تكون هذه
 الآية حجة ايضا موافقة لتلك الآية لانه لما كان رمى امهات المؤمنين
 اذى للنبي صلى الله عليه وسلم لمن صاحبه في الدنيا والآخرة ولهذا
 قال ابن عباس ليس فيها توبة لان مؤذى النبي صلى الله عليه وسلم
 لا تقبل توبته او يريد اذا ناب عن القذف حتى يسلم اسلاما جديدا
 وعلى هذا فرميهن نقاق مبيح للدم اذا قصد به اذى النبي صلى الله
 عليه وسلم او بعد العلم بانهن ازواجه في الآخرة فانه ما يفت امرأة
 تنبي فقط .

ومما يدل على ان قذفهن اذى للنبي صلى الله عليه وسلم ما
 خرجه في الصحيحين في حديث الافك عن عائشة قالت لا فقام رسول
 الله صلى الله عليه وسلم فاستعدو من عبد الله بن ابي سلول قالت
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يا معشر
 المسلمين من يعتذرني من رجل قد بلغني اذاه عن اهل بيته فوالله
 ما علمت على اهلي الا خيرا ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا

وما كان يدخل على أهلى إلا معى فقام سعد بن معاذ الأتصاري فقال
 أنا أعدوك منه يا رسول الله أن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان
 من الخزرج أخرج امرئنا ففعلنا أمرك فقام سعد بن عبيدة وهو
 سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال لسعد
 بن معاذ لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله فقام أسيد بن حضير
 وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبيدة كذبت لعمر الله
 لنقتله فانك مناقق تجادل من المناققين قالت فثار الحيان الأوس
 والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله صلى عليه وسلم
 قائم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفّضهم
 حتى سكتوا وسكت « وفي رواية أخرى صحيحة أن هذه الآية في
 أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة ويقول الآخرون يعنى
 أزواج المؤمنين عامة » وقال أبو سلمة قذف المحصنات من الموجبات
 ثم قرأ (أن الذين يرمون المحصنات) الآية وعن عمر بن قيس قال
 قذف المحصنة يحبط عمل تسعين سنة رواهما الأشجج وهذا قول
 كثير من الناس ووجهه ظاهر الخطاب فإنه عام فيجب اجراؤه على
 عمومته إذ لا موجب لخصوصه وليس هو مختصاً بنفس السبب
 بالاتفاق لأن حكم غير عائشة من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم
 داخل في العموم وليس هو من السبب ولأنه لفظ جمع والسبب في
 واحدة هنا ولأن قصر عمومات القرآن على أسباب تزولها باطل فإن
 عامة الآيات نزلت بأسباب اقتضت ذلك وقد علم أن شيئاً منها لم
 يقصر على سببه والفرق بين الآيتين أنه في أول السورة ذكر العقوبات
 المشروعة على أيدي المكلفين من الجلد ورد الشهادة والتفسيق وهنا
 ذكر العقوبة الواقعة من الله سبحانه وهي اللعنة في الدارين والعذاب
 العظيم . وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه عن
 أصحابه « أن قذف المحصنات من الكبائر » وفي لفظ في الصحيح
 « قذف المحصنات العاقلات المؤمنات » .

ثم اختلف هؤلاء فقال أبو حمزة النعماني بلغنا أنها نزلت في
 مشركي أهل مكة إذ كان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم

عهد فكانت المرأة اذا خرجت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
الى المدينة مهاجرة قد دفنها المشركون من أهل مكة وقالوا انما خرجت
تفجر ، فعلى هذا يكون فيمن قد دفن المؤمنين قد دفنوا يصعدون به عن
الايمان ويقصد بذلك دم المؤمنين لينفر الناس عن الاسلام كما فعل
كعب بن الاشرف وعلى هذا فمن فعل ذلك فهو كافر وهو بمنزلة من
سب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله انها نزلت زمن العهد يعني
والله اعلم انه عني بها مثل اولئك المشركين المعاصدين والا فهذه الآية
نزلت ليالي الافك في غزوة بني المصطلق قبل الخندق والهدنة كانت
بعد ذلك بسنتين : ومعتوم من اجرائها على ظاهرها وعمومها لان سبب
نزولها قد دفن عائشة وكان فيمن قد دفنها مؤمن ومتفق وسبب النزول
لا بد ان يندرج في العموم ولانه لا موجب لتخصيصها والجواب على
هذا التقدير انه سبحانه قال هنا (لعنوا في الدنيا والآخرة) على بناء
الفعل للمفعول ولم يسم اللاعن ، وقال في الآية الاخرى (ان الذين
يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة) واذا لم يسم الفاعل
جاز ان يلعنهم غير الله من الملائكة والناس وجاز ان يلعنهم الله في
وقت ويلعنهم بعض خلقه في وقت وجاز ان الله يتولى لعنة بعضهم
وهو من كان قد دفن طعنا في الدين ويتولى خلقه لعنة الآخرين واذا
كان اللاعن مخلوقا فلعله قد يكون بمعنى الدعاء عليهم وقد يكون
بمعنى انهم يعدونهم عن رحمة الله ، ويؤيد هذا ان الرجل اذا قدف
امراته تلعنهن وقال الزوج في الخامسة لعنة الله عليه ان كان من
الكاذبين فهو يدعو على نفسه ان كان كاذبا في التلذذ ان يلعنه الله كما
امر رسوله ان يباهل من حاجبه في المسيح بعد ما جاءه من العلم بان
يشبهوا فيجعلوا لعنة الله على الكاذبين : فهذا مما يلعن به القاذفة
ومما يلعن به ابن يجلد وان ترد شهادته ويقسق فانه عقوبة له واقصاء
له عن موطن الامن والقبول وهي من رحمة الله ، وهذا بخلاف من
اخبر الله انه لعنه في الدنيا والآخرة فان لعنة الله له توجب زوال
النصر عنه من كل وجه ويعدله عن اسباب الرحمة في الدارين .

ومما يؤيد الفرق انه قال (ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة واعد لهم عذابا مهينا) ولم يحن اعداد العذاب المهين في القرآن الا في حق الكفار كقوله (الذين يبخسون ويأمرون الناس بان يخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين هدايا مهينا) وقوله (وخذوا حذرکم ان الله اعد للكافرين عذابا مهينا) وقوله (قباؤا يفضب على غضب وللکافرين عذاب مهين) انما نملی لهم ليزدادوا انما ولهم عذاب مهين ، والذين كفروا وكذبوا باياتنا فاولئك لهم عذاب مهين ، واذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا اولئك لهم عذاب مهين ، وقد انزلنا آيات بيمتسات وللکافرين عذاب مهين ، اتخذوا ايمانهم جنة ففسدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين .

واما قوله تعالى (ومن بعض الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين) فهي والله أعلم فيمن جحد الفرائض واستخف بها على انه لم يذكر ان العذاب اعد له واما العذاب العظيم فقد جاء وعيدا للمؤمنين في قوله (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما اخذتم عذاب عظيم) وقوله (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم فيما افضتم فيه عذاب عظيم) وفي المحارب (ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم) وفي القاتل (وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذابا عظيما) وقوله (ولا تتخذوا ايمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثيوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم) وقد قال سبحانه (ومن يهن الله فما له من مكرم) وذلك لان الاهانة اذلال وتحقير وخزي وذلك قدر رائد على الم العذاب فقد يعذب الرجل الكريم ولا يهان فلما قال في هذه الآية (واعد لهم عذابا مهينا) علم انه من جنس العذاب الذي توعد به الكفار والمنافقين ؛ ولما قال هناك (ولهم عذاب عظيم) جاز ان يكون من جنس العذاب في قوله (لمسكم فيما افضتم فيه عذاب عظيم) . ومما يبين به الفرق ايضا انه سبحانه قال هنساك (واعد لهم هدايا مهينا) والعذاب انما اعد للكافرين فان جهنم لهم خلقت لانهم

لا بد أن يدخلوها وما هم منها بمخرجين ، وأهل الكبائر من المؤمنين
يجوز أن يدخلوها إذا غفر الله لهم وإذا دخلوها فإنهم يخرجون منها
ولو بعد حين قال سبحانه (واتقوا النار التي أعدت للكافرين) فأمر
سبحانه المؤمنين أن لا يأكلوا الربا وأن يتقوا الله وأن يتقوا النار
التي أعدت للكافرين فعلم أنهم يخاف عليهم من دخول النار إذا أكلوا
الربا وفعلوا المعاصي مع أنها سعدة للكافرين لا لهم ، ولذلك جاء في
الحديث أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا
يحيون وأما أقوام لهم ذنوب فيصيبهم صفع من نار ثم يخرجهم الله
منها ، وهذا كما أن الجنة أعدت للمتقين الذين ينشقون في الصراء
والضراء وإن كان يدخلها الأبناء يعمل آباءهم ويدخلها قوم بالشفاعة
وقوم بالرحمة وبشيء الله لما فضل منها خلقا آخر في الدار الآخرة
فيدخلهم أياها وذلك لأن الشيء إنما يعدلن يستوجبه ويستحقه ولمن
هو أولى الناس به ثم قد يدخل معه غيره بطريق التبعية أو لسبب
آخر والله أعلم .

غُضْيُ الْبَحْرِ

وَسُئِلَ يَوْمًا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْعَلُونَ مِنْ
أَيْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُونَ فَرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنْ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا
يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَفْعَلْنَ مِنْ أَيْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فَرُوجَهُنَّ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا) الْآيَةُ . وَالْحَدِيثُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذِكْرِ زَنَا الْأَعْضَاءِ كُلِّهَا وَمَاذَا عَلَى الرَّجُلِ إِذَا مَسَّ يَدَا
الصَّبِيِّ الْأَمْرَدِ وَهَلْ هُوَ مِنْ جَنْسِ النِّسَاءِ فِي نَقْضِ الْوَضُوءِ أَمْ لَا وَمَاذَا
عَلَى الرَّجُلِ إِذَا جَابَ إِلَى عَبْدِهِ الْمُرْدَانِ وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى هَذَا وَهَذَا وَتَلَدَّ
بِذَلِكَ وَمَا جَاءَ فِي التَّحْرِيمِ مِنَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ الْأَمْرَدِ وَالْحَسَنِ وَهَلْ
هَذَا الْحَدِيثُ الْمُرَوِيُّ أَنَّ النَّظَرَ إِلَى الْوَجْهِ الْمَلِيحِ عِبَادَةٌ أَمْ لَا وَإِذَا
قَالَ أَحَدُنَا مَا أَنْظَرَ إِلَى الْمَلِيحِ الْأَمْرَدِ لِأَجْلِ شَيْءٍ وَلَكِنِّي إِذَا رَأَيْتُهُ
قُلْتُ سُبْحَانَ اللَّهِ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ فَهَلْ هَذَا الْقَوْلُ صَوَابٌ
أَمْ لَا أَفْتَرْنَا مَا جُورِين .

فَاجَابَ الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذَا مَسَّ الْأَمْرَدُ لَشَهْوَةً فَلْيَبْهَ قَوْلَانِ فِي مَذْهَبِ
أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ ، أَحَدُهُمَا أَنَّهُ كَمَسَ النِّسَاءَ لَشَهْوَةٍ يَنْقُضُ الْوَضُوءَ وَهُوَ
الْمَشْهُورُ فِي مَذْهَبِ مَالِكٍ وَذَكَرَهُ الْقَاضِي أَبُو يَعْقُبَ فِي تَرْجِيحِ الْمَذْهَبِ وَهُوَ
أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ ، وَالثَّانِي أَنَّهُ لَا يَنْقُضُ وَهُوَ الْمَشْهُورُ
فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَظْهَرَ فَإِنَّ الْوَضُوءَ فِي الدَّيْرِ يَقْتَضِي

العبادات التي تقصد بالوطء في القيل كالصيام والاحرام والاعتكاف
ويوجب الفصل كما يوجب هذا فتكون مقدمات هذا في باب
العبادات كمقدمات هذا فلو من الامر لشهوة وهو محرم فعليه دم
كما عليه لو من اجنبية لشهوة وكذلك اذا من الامر لشهوة وجب
ان يكون كما لو من المرأة لشهوة في نقض الوضوء والذي لا ينقض
الوضوء بمسه يقول انه لم يخلق محلا لذلك فيقال لا ريب انه لم
يخلق لذلك وان الفاحشة اللوطية من اعظم المحرمات لكن هذا القدر
لم يعتبر في باب الوطء فلو وطئ بالدبر تعلق به ما ذكر من الاحكام
وان كان الدبر لم يخلق محلا للوطء مع ان نفرة الطباع في الوطء
بالدبر اعظم من نفرتها عن الملامسة ؛ ونقض الوضوء باللمس يراعى
فيه حقيقة الحكمة وهو ان يكون المس لشهوة عند الاكثرين كما لك
واحمد وغيرهما يراعى كما يراعى مثل ذلك في الاحرام والاعتكاف
وغير ذلك وعلى هذا القول فحيث وجد اللمس لشهوة تعلق به
الحكم حتى لو من بنته وأخته وأمه لشهوة فنقض وضوءه فكذلك
من الامر ؛ واما الشافعي واحمد في رواية فيعتبر المظنة وهو ان
النساء مظنة الشهوة فينقض الوضوء سواء كان بشهوة او بغير
شهوة ولهذا لا ينقض من المحارم لكن لو من ذوات محارمه لشهوة
فقد وجدت حقيقة الحكمة وكذلك اذا من الامر لشهوة والتسلط
بمس الامر كمصافحته ونحو ذلك حرام باجماع المسلمين كما يحرم
التسلط بمس ذوات المحارم والمرأة الأجنبية كما ان الجمهور على ان
عقوبة اللوطي اعظم من عقوبة الزنا بالأجنبية فيجب قتل الفاسق
والمفعول به سواء كان احدهما محصنا او لم يكن وسواء كان احدهما
مملوكا للآخر او لم يكن كما جاء ذلك في التمسك عن النبي صلى الله
عليه وسلم وعمل به أصحابه من غير نزاع يعرف بينهم وقتله بالرجم

كما قتل الله قوم لوط وبذلك جاءت الشريعة في قتل الزاني انه
بالرجم فرجم النبي صلى الله عليه وسلم ما عز من ماله والفاطمية
واليهوديين والمرأة التي أرسل اليها ايسا وقال اذهب الى امرأة
هذا فان اعترفت فارجمها فرجمها : والنظر الى وجه الامرد بشهوة
كالنظر الى وجه ذوات المحارم والمرأة الأجنبية بالشهوة سواء كانت
الشهوة شهوة الوطء او كانت شهوة التلذذ بالنظر كما يتلذذ بالنظر
الى وجه المرأة الأجنبية واذا كان معلوما اكل احده ان هذا حرام
فكذلك النظر الى وجه الامرد باتفاق الامة .

وقول القائل ان النظر الى وجه الامرد عبادة كقوله ان النظر
الى وجوه النساء والنظر الى محارم الرجل كبنت الرجل وامه
واخته عبادة ومعلوم ان من جعل هذا النظر المحرم عبادة فهو بمنزلة
من جعل الفواحش عبادة قال الله تعالى (واذا فعلوا فاحشة قالوا
وجدنا عليها آياتنا والله امرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء اتقولون
على الله ما لا تعلمون) ومعلوم انه قد يكون في صور النساء الاجنبيات
وذوات المحارم من الاعتبار والدلالة على الحقائق من جنس ما في
صور التردان فهل يقول مسلم ان للانسان ان ينظر بهذا الوجه الى
صور النساء نساء العالمين وصور محارمه ويقول ان ذلك عبادة بل
من جعل مثل هذا النظر عبادة فانه كافر مرتد يجب ان يستتاب فان
تاب والا فقتل وهو بمنزلة من جعل امانة طالب الفاحشة عبادة او
جعل تناول سمر الخمر عبادة او جعل السكر من العشيبة عبادة :
فمن جعل المعاونة بقيادة او غيرها عبادة او جعل شيئا من المحرمات
التي يعلم تحريمها في دين الاسلام عبادة فانه يستتاب فان تاب والا
قتل وهو مضاهاة للمشركين : الذين اذا فعلوا الفاحشة قالوا وجدنا

عليها آباءنا والله أمرنا بها قل أن الله لا يأمر بالفحشاء اتقوا الله أن تقولون شلى
الله مالا تعلمون) وقاحشة أولئك إنما كانت طوافهم بالبيت عراة
وكانوا يقولون لا تطوف في الشياطين عصينا الله فيها فلهذا أمرنا
كأننا يطوفون عراة على وجه اجتناب ثياب العنسية وقد ذكر الله
عنهم ما ذكر فكيف بمن جعل جنس الفاحشة المتعلقة بالشهوة
عبادة لله سبحانه قد أمر في كتابه بقض البصر وهو نوعان قض
البصر عن الفورة وغضها عن محل الشهوة فالأول كقض الرجل بصره
عن صورة غيره كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الرجل
إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة » ويجب على الإنسان أن
يستر عورته كما قال لماوية بن حيدة « أحفظ عورتك إلا من زوجتك
أو ما ملكك يمينك قلت فإذا كان أحدا مع قومه قال أن استطعت
أن لا يرى بها أحد فلا يرى بها قلت فإن فإذا كان أحدا خاليا قال قاله
أحق أن يستحي منه من الناس » ويجوز كشفها بقدر الحاجة كما
تكشف عند التخلي ولذلك إذا اغتسل الرجل وحده بحيث يجسد
ما يستتره فله أن يغتسل عريانا كما اغتسل موسى عريانا ويوسف
وكما في اغتسال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح واغتساله في
حديث مبسوبة .

وأما النوع الثاني من النظر كالنظر إلى الزينة الباطنة من المرأة
الأجنبية فهذا أشد من الأول كما أن الخمر أشد من الميتة والدم
ولحم الخنزير وعلى صاحبها الحسد وتلك المحرمات إذا تناولها
مستحل لها كان عليه التعزير لأن هذه المحرمات إذا تناولها
كما تشتهي الخمر وكذلك النظر إلى صورة الرجل لا يشتهي كما
يشتهي النظر إلى النساء ونحوهن وكذلك النظر إلى الأمور بشهوة
هو من هذا الباب وقد اتفق العلماء على تحريم ذلك كما اتفقوا على
تحريم النظر إلى الأجنبية وذوات المحارم بشهوة والخالق سبحانه
يسبح عند رؤية مخلوقاته كلها وليس خلق الأمور بأعجب في قدرته
من خلق ذي الحية ولا خلق السمسم بأعجب في قدرته من خلق

الرجال فتخصيص الإنسان بالتسبيح نظره إلى الأمر دون غيره
كتخصيصه بالتسبيح ينظره إلى المرأة دون الرجل وماذا لك لأنه أدل
على عظمة الخالق هذه ولكن لأن الجمال يغير قلبه وعقله وقد يذهله
ما رآه فيكون تسبيحه لما حصل في نفسه من الهوى كما أن النسوة
لما رأين يوسف (أكبرته وقطعن أيديهن وقلن خاش لله ما هذا بشرا
إن هذا إلا ملك كريم) وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه
وسلم أنه قال « أن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى
قلوبكم وأعمالكم » فإذا كان الله لا ينظر إلى الصور والأموال وإنما
ينظر إلى القلوب والأعمال فكيف يفضل الشخص بما لم يفضل الله
به . وقد قال تعالى (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم
زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) وقال في المنافقين (وإذا رأيتهم
تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة
يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله) فإذا كان
هؤلاء المنافقون الذين تعجب الناظر أجسامهم لما فيها من البهائم
والرواء والزينة الظاهرة وليسوا ممن ينظر إليه شهوة قد ذكر الله
عندهم ما ذكر فكيف بمن ينظر إليه شهوة وذلك أن الإنسان قد ينظر
إليه لما فيه من الإيمان والتقوى وهذا الاعتبار بقلبه وعمله لا بصورته
وقد ينظر إليه لما فيه من الصورة الدالة على المصور فهذا حسن وقد
ينظر إليه من جهة استحسان خلقه كما ينظر إلى الخيل والبهائم وكما
ينظر إلى الأشجار والأنهار والأزهار فهذا أيضا إذا كان على وجه
استحسان الدنيا والرياسة والمال فهو مأموم بقسوله (ولا تمدن
عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم
فيه) وأما أن كان على وجه لا ينقص الدين إنما فيه راحة النفس
فقط كالنظر إلى الأزهار فهذا من الباطل الذي لا يستعان به على
الحق . وكل قسم من هذه الأقسام متى كان معه شهوة كان حراما
بلا ريب سواء كانت شهوة تمتع النظر بالشهوة أو كان نظرا بشهوة
الوطء وفرق بين ما يجده الإنسان عند نظره إلى النسوان والمردان
فهذا الفرقان افترق الحكيم الشرعي فصار النظر إلى المردان ثلاثة

اقسام ما تقترب به الشهوة فهو محرم بالاتفاق والثاني ما يحرم انه
لا شهوة معه كنظر الرجل الورع الى ابنته الحسن وابنته الحسنه
فهذا لا تقترب به شهوة الا ان يكون الرجل من افجر الناس ومتى
اقترب به الشهوة حرم .

وعلى هذا نظر من لا يعيل قلبه الى المردان كما كان الصحابة
وكالأمم الذين لا يعرفون هذه الفاحشة فان الواحد من هؤلاء
لا يفرق من هذا الوجه بين نظره الى ابنته وابن جاره وصبي أجنبي
لا يخطر بقلبه شيء من الشهوة لأنه لم يعتد ذلك وهو سليم القلب
من قبل ذلك وقد كانت الاماء على عهد الصحابة يمشين في الطرقات
متكشفات الرؤوس ويخدمن الرجال مع سلامة القلوب فلو اراد
الرجل ان يترك الاماء التركيات الحسان يمشين بين الناس في مثل
هذه البلاد والأوقات كما كان اولئك الاماء يمشين كان هذا من باب
الفساد ؛ وكذلك الرد الحسان لا يصلح ان يخرجوا في الامكنة
والأزقة التي يخاف فيها الفتنة بهم الا بقدر الحاجة فلا يمكن الأمر
الحسن من التبرج ولا من الجلوس في الحمام بين الاجانب ولا من
رقصه بين الرجال ونحو ذلك مما فيه فتنة للناس والنظر اليه
كذلك .

وانما وقع النزاع بين العلماء في القسم الثالث من النظر وهو
النظر اليه بغير شهوة لكن من خوف ثوراتها ففيه وجهان في مذهب
أحمد اصحهما وهو المأثري من نص الشافعي وغيره انه لا يجوز
والثاني لان الأصل عدم ثوراتها فلا يحرم بالشك بل قد يكره ؛
والاول هو الراجح كما ان الراجح في مذهب الشافعي وأحمد ان
النظر الى وجه الأجنبية في غير حاجة لا يجوز وان كانت الشهوة
مستفية لكن لأنه يخاف ثوراتها ولهذا حرم الخلوة بالأجنبية لأنها
مقنة الفتنة والأصل ان ما كان سببا للفتنة فإنه لا يجوز فان الذريعة
الى الفساد يجب سدها اذا لم يعارضها مصلحة راجحة ولهذا كان
النظر الذي قد يفضي الى الفتنة محرما الا اذا كان لحاجة راجحة

مثل نظر الخاطب والطبيب وغيرهما فإنه يباح النظر للحاجة لكن مع علم الشهوة وأما النظر لغير حاجة إلى محل الفتنة فلا يجوز : ومن كرر النظر إلى الأمر ونحوه وأدامه وقال إنى لا أنظر لشهوة كذب في ذلك فإنه إذا لم يكن له داعٍ يحتاج معه إلى النظر لم يكن النظر إلا لما يحصل في القلب من اللذة بذلك ، وأما نظر الفجأة فهو عفو إذا صرف بصره كما ثبت في الصحيح عن جرير قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجأة فقال « اصرف بصرك » وفي السنن أنه قال لعلى رضى الله عنه « يا على لا تتبع النظرة النظرة فإنها لك الأولى وليست لك الثانية » : وفي الحديث الذى فى المسند وغيره « النظر سهم مسموم من سهام إبليس » : وقيل « من نظر إلى محاسن امرأة ثم غص بصره أورد الله قلبه حلاوة عبادة يجدها إلى يوم القيامة » أو كما قال : ولهذا يقال إن غص البصر عن الصورة التى ينهى عن النظر إليها كالمرأة والأمرء الحسن يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر : أحدها حلاوة الإيمان ولذته التى هي أعلى وأطيب مما تركه الله فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه والنفس تحب النظر إلى هذه الصور لا سيما نفوس أهل الرياضة والصفاء فإنه يبقى فيها رقة تنجذب بسببها إلى الصور حتى تبقى الصورة تخطف أحدهم وتصرعه كما يصرعه السبع .

ولهذا قال بعض التابعين ما أنا على الشاب التائب من سبع يجلس إليه بأخوف عليه من حدث جميل يجلس إليه ، وقال بعضهم اتقوا النظر إلى أولاد الملوك فإن فتنهم كفتنة العذارى : وما زال أئمة العلم والدين كائنة الهدى وشيوخ الطريق يوصون

بترك صحبة الاحداث حتى يروى عن قنص الموصلى أنه قال صحبت
 ثلاثين من الابدال كلهم يوصيني عند فراقه بترك صحبة الاحداث :
 وقال بعضهم ما سقط عبد من عين الله الا ابتلاه بصحبة هؤلاء
 الاثنان : ثم النظر يولد المحبة فتكون علاقة لتعلق القلب بالمحبوب
 ثم صيابة لانصباب القلب اليه ثم غراما للزومه للقلب كالغريم الملازم
 لغريمه ثم عشيقا الى ان يصير قتيما والمقيم المعبود وتيم الله عبد الله
 فيبقى القلب عبدا لمن لا يصلح ان يكون اخا ولا خادما وهذا انما
 يتلى به اهل الاعراض عن الاخلاص لله الذين فيهم نوع من الشرك
 والا فاهل الاخلاص كما قال الله تعالى في حق يوسف عليه السلام
 (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين)
 فامرأة العزيز كانت مشركة فوقع مع تزوجها فيما وقعت فيه من
 السوء ويوسف عليه السلام مع عزوبته ومراودتها له واستعانتها
 طيه بالنسوة وعقوبتها له بالحس على العفة عصمه الله باخلاصه
 لله تحقيقا لقوله (لاغويتهم اجمعين الا عبادك المخلصين) قال تعالى
 (ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من القاوين) والى
 هو اتباع الهوى .

وهذا الباب من اعظم ابواب اتباع الهوى ومن امر بعشق
 الصور من المتفلسفة كايين سينا وذويه او من الفرسى كما يذكر عن
 بعضهم من جهال المتصوفة فانهم اضل اهل ضلال فهم مع مشاركة
 اليهود في الغى والنصارى في الضلال زادوا على الامتين في ذلك
 فان هذا وان ظن ان فيه مشعة للعاشق كتلطيف نفسه وتهذيب
 اخلاقه او للمعشوق من السعى في مصالحه وتعاليمه وتدريبه وغير
 ذلك فمضرة ذلك اضعاف منفعة واين اثم ذلك من نفعه وانما هذا

كما يقال أن في الزنا منفعة لكل منهما بما يحصل له من اللذة
 والسرور ويحصل لها من الجميل وغير ذلك وكما يقال أن في شرب
 الخمر منافع بدنية ونفسية . وقال تعالى في الخمر والميسر (قل
 فيهما آثم كبير ومنافع للناس والتمهما أكبر من نفعهما) وهذا قيل
 التحريم دفع ما قاله عند التحريم وبعده فإن التعبد بهذه الصور
 هو من جنس الفواحش وباطنه من باطن الفواحش وهو من باطن
 الآثم قال الله تعالى (واذروا ظاهر الآثم وباطنه) وقال تعالى (قل
 إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن) وقال تعالى (وإذا
 فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله
 لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) وليس بين أمة
 الدين نزاع في أن هذا ليس بمستحب كما أنه ليس بواجب فمن
 جعله ممدوحا واثني عليه فقد خرج عن إجماع المسلمين واليهود
 والنصارى بل وعما عليه عقلاء بني آدم من جميع الأمم وهو ممن
 اتبع هواه بغير هدى من الله (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى
 من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين) وقال تعالى (وأما من خاف
 مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) وقال تعالى
 (ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يفسلون عن
 سبيل الله لهم عذاب شديد بما كانوا يفسلون) .

وأما من نظر إلى المردان ظانا أنه ينظر إلى مظاهر الجمال الإلهي
 وجعل هذا طريقا له إلى الله كما يفعله طوائف من المدعين للمعرفة
 فقوله هذا أعظم كفرا من قول عباد الأصنام ومن كفر قوم لوط
 فهؤلاء من شر الزنادقة المرتدين الذين يجب قتلهم بإجماع كل أمة فإن
 عباد الأصنام قالوا إنما نعبدكم ليقتربونا إلى الله فزلفى هؤلاء

يجعلون الله سبحانه موجودا في نفس الاصنام وحالا فيها فانهم
 لا يريدون بظهوره وتجليه في المخلوقات انها أدلة عليه وآيات له
 بل يريدون أنه سبحانه ظهر فيها وتجلي فيها ويشبهون ذلك بظهور
 المساء في الصوفة والزبد في اللبن والزيت في الزيتونة والدهن في
 السمسم ونحو ذلك مما يقتضي حلول نفس ذاته في مخلوقاته
 أو اتحاده فيها ، فيقولون في جميع المخلوقات نظير ما قاله الصاوي
 في المسيح خاصة ثم يجعلون المردان مظاهر الجمال فيقرون هذا
 الشريك الأعظم طريقا إلى استحلال الفواحش بل استحلال كل محرم
 كما قيل لأفضل مشايخهم التلمساني إذا كان قولكم بأن الوجود
 واحد هو الحق فما انشرق بين أمي وأختي وبنتي حتى يكون هذا
 حلالا وهذا حراما قال الجميع عندنا سواء تكن هؤلاء المحجوبون
 قائما حرام فقلنا حرام عليكم ، ومن هؤلاء الحلولية والاتحادية من
 يخص الحلول والاتحاد ببعض الأشخاص ، أما ببعض الأنبياء
 كالسيح أو ببعض الصحابة كقول الغالية في علي أو ببعض الشيوخ
 كالخلاجية ونحوهم أو ببعض الملوك أو ببعض الصور كصور المردان
 ويقول أحدهم إنما انظر إلى صفات خالقي واشهد بها في هذه الصورة
 والكفر في هذا القول أبين من أن يخفى على من يؤمن بالله ورسوله
 ولو قال مثل هذا الكلام في نبي كريم لكان كافرا فكيف إذا قاله في
 صبي أمرد فقيح الله طائفة يكون معبودها من جنس موطنها .

وقد قال تعالى (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا
 يأمركم بالكفر بعد أن أنتم مسلمون) فإذا كان من اتخذ الملائكة
 والنبيين أربابا مع اعترافيهم بأنهم مخلوقون لله كفارا فكيف بمن
 اتخذ بعض المخلوقات أربابا مع قوله أن الله فيها أو متحد بها
 فوجوده وجودها ونحو ذلك من المقالات .

وأما الفائدة الثانية في غرض البصر فهو يورث نور القلب
والقراءة قال تعالى عن قوم لوط (لمحرك أنهم لقي سكرتهم
بعمهون) فالتعلق بالصورة يوجب قساد العقل وعمى البصيرة وسكر
القلب بل جنونه كما قيل :

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى أفافة عن به سكران
وقيل أيضا :

قائوا جنتهم تهوى فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين
وذكر الله سبحانه آية النور عقيب آيات غرض البصر فقال
(الله نور السموات والأرض) وكان سبحانه بن شجاع الكرماني
لا تخطيء له قراءة وكان يقول من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه
بإدوام المراقبة وغرض بصره عن المخارم وكف نفسه عن الشهوات
وذكر خصلة خامسة أظنه هو أكل الحلال لم تخطيء له قراءة
والله تعالى يجزي العبد عن عمله بما هو من جنس عمله فيطلق نور
بصيرته ويفتح عليه باب العلم والمعرفة والكشف وتجو ذلك
مما ينال ببصيرة القلب :

(الفائدة الثالثة) قوة القلب وقبانه وشجاعته فيجعل الله له
سلطان البصيرة مع سلطان الحقيقة فان في الأمر الذي يخالف هواه
يفرق الشيطان من ظله ؛ ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس
وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه وإن الله جعل العزة لمن أطاعه
والدلة لمن عصاه قال تعالى (يقولون لن رجعا إلى المدينة ليخرجن
الأعز منها الأذل والله العزة والرسولة وللمؤمنين) وقال تعالى

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون أن كنتم مؤمنين) ولهذا كان في كلام الشيوخ : الناس يطلبون العز بأبواب الموت ولا يجدونه إلا في طاعة الله : وكان الحسن البصري يقول وإن هملجت بهم البراذن وتقطعت بهم البقال فإن ذل المعصية في رقابهم أبي الله إلا أن يدل من عصاه ومن أطاع الله والإله فيما أطاعه فيه ومن عصاه ففيه قسط من فعل من عاداه بمعاصيه ، وفي دعاء القنوت « أنه لا يدل من واليت ولا يعز من عاديت » .



والصوفية المشهورون عند الأمة الذين لهم شأن عساق في الأمة لم يكونوا يستحسنون مثل هذا بل يهرون عنه ولهم في الكلام في ذم صحبة الأحداث وفي ائرد على أهل الحول وبيان مياشة الخالق ما لا يتسع هذا الموضع للذكر وإنما استحسنه من يشبه به ممن هو عاص أو فاسق أو كافر فيظهر بدعوى الولاية لله وتحقيق الإيمان والعرفان وهو من شر أهل العداوة لله وأهل التفاق واليهتان والله تعالى يجمع لأوليائه المتقين خير الدنيا والآخرة ويجعل لأعدائه الصفة الخاسرة والله سبحانه أعلم : مما يتعلق بتفسير قوله تعالى (والذين يتبعون الأكتاب مما ملكت أيمانكم فكتابهم أن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) .

اشتراط الولاء

في قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة « أبتاعني واشترطني لهم الولاء فانما الولاء لمن أعتق » فإن هذا الشكل على كثير من الناس حتى أن منهم من قال انفرد به هشام دون الزهري وظن ذلك علة فيه والحديث في الصحيحين لا علة فيه ومنهم من قال « اشترطني لهم » بمعنى عليهم قالوا ومثله قوله تعالى « ولهم العنة » أي عليهم العنة وتثقل هذا حرملة عن الشافعي وتقل عن المزني وهو ضعيفة أما أولا فإن قوله « اشترطني لهم » صريح في معناه واللام للاختصاص وأما قوله (ولهم العنة) فمثل قوله (لهم العذاب ولهم العزى) وهو معنى صحيح ليس المراد أنهم يملكون العنة بل هي إذا قيل لهم العنة فالمراد أنهم يجزون بها وإذا قيل عليهم فالمراد أنداء عليهم بالعنة فالمعنيان مفترقان وقد يراد بقوله عليهم الخبر أي وقعت عليهم فحرق الاستعلاء أفاد غير ما أفاده حرف الاختصاص وإن كانا يشتركان في أن أولئك ملعونون : وقوله « اشترطني لهم » مبين لمعنى اشترطني عليهم فكيفما يفسر معنى اللفظ بمعنى ضده : وأيضا لعائشة قد كانتا اشترطتا ذلك عليهما وقالت « إن شأؤنا عديتكما لهما عدة واحدة ويكون ولاؤك لي فامتنعوا » وأيضا فإن ثبوت الولاء للمعتق لا يحتاج إلى اشتراطه بل هو إذا أعتق كان الولاء له سواء شرط ذلك على البائع أو لم يشترط : يبقى حمل الحديث على هذا يشعر بأن الولاء إنما يصير لهم إذا شرطته وهذا باطل ومن تدبر الحديث تبين له قطعا أن الرسول لم يرد هذا .

وأما ما دل عليه الحديث فأشكل عليهم من جهتين من جهة الرسول كيف يأمر بالشرط الباطل : والثاني من جهة أن الشرط الباطل كيف لا يفسد العقد وقد إيجاب طائفة بجواب ثالث ذكره

أحمد وغيره وهو أن القوم كانوا قد علموا أن هذا الشرط منهي عنه
فأقدموا على ذلك بعد نهى النبي صلى الله عليه وسلم فكان وجود
اشتراطهم كعدمه وبين عائشة أن اشتراطك لهم الولاء لا يضر
فليس هو أمرا بالشرط لكن الذنا للمشتري أن هذا لا يضره ويجوز للإنسان
أن يبيع إلا به وأخبارا للمشتري أن هذا لا يضره ويجوز للإنسان
أن يدخل في مثل ذلك فهو إذن في الشراء مع اشتراطه البائع ذلك
وإذن في الدخول معهم في اشتراطه لعدم الضرر في ذلك : ونفس
الحديث صريح في أن مثل هذا الشرط الفاسد لا يقصد العقد وهذا
هو الصواب وهو قول ابن أبي ليلى وهو مذهب أحمد في أظهر
الروايتين عنه ، وإنما استشكل الحديث من ظن أن الشرط الفاسد
يقصد العقد وليس كذلك لكن إن كان المشرط يعلم أنه شرط محرم
لا يحل اشتراطه فوجود اشتراطه كعدمه مثل هؤلاء القوم فيصح
اشتراء المشتري ويملك المشتري ويلغو هذا الشرط الذي قد علم
البائع أنه محرم لا يجوز الوفاء به وأما أولئك القوم فإن كانوا قد
علموا بالنهي قبل استفتاء عائشة فلا شبهة لكن ليس في الحديث
ما يدل عليه بل فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قام عشية فقال
« ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست في كتاب الله من اشتراط
شرطا ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط » وهذا كان
عقب استفتاء عائشة وقد علم أولئك بهذا بلا ريب وكان عقد
عائشة معهم بعد هذا الإغلام من الرسول صلى الله عليه وسلم قاما
أن يكونوا ثابوا عن هذا الشرط أو أقدموا عليه مع العلم بالتحريم
وحسبنا فلا يضر اشتراطه هذا هو الذي يدل عليه الحديث وسياقه
ولا اشكال فيه والله السميع العليم .

وأما أن كان المشرط لمثل هذا الشرط الباطل جاعلا بالتحريم
ظانا أنه شرط لازم فهذا لا يكون البيع في حقه لازما ولا يكون أيضا
باطلا وهذا ظاهر مذهب أحمد بل في النسخ إذا لم يعلم أن هذا
الشرط لا يجب الوفاء به فإنه إنما رضى بزوال ملكه بهذا الشرط
فإذا لم يحصل له فملكه له أن شاء وأن شاء أن يلغو البيع الفقه

كما لو ظهر بالمبيع عيب وكان شروط الصالحة اذا لم
 يوف له بهسا اذا باع بشرط رهن او ضمان فلم يات به فله
 الفسخ وله الامضاء ، والقول بان البيع باطل في مثل هذا
 ضعيف مخالف للاصول بل هو غير لازم يتسلط فيه المشتري على
 الفسخ كالمشتري للمعيب والمضرة ونحوهما فان حقه مخير
 يتمكن من الفسخ وقد قيل في مذهبه احمد ان له ارش ما نقص
 من الثمن بالغاء هذا الشرط كما قيل مثل ذلك في المعيب وهو اشهر
 الروايتين منه والرواية الاخرى لا يستحق الا الفسخ وانما له الارش
 بالتراضي او عند تعذر الرد كقول جمهور الفقهاء وهذا اصح فانه
 كما ان المشترط لم يرض الا بالشرط فلا يلزم بالبيع بدونه بل له
 الخيار فكذلك الآخر لم يرض الا بالثمن المسمى وان كان رضى به
 مع الشرط فاذا انقض الشرط وصار الولاء له فهو لم يرض باكثر
 من الثمن في هذه الصورة بل ان شاء فسخ البيع فلا يلزم بالزيادة
 بل اذا اعطى الثمن فان شاء الآخر قبل واعضى وان شاء فسخ البيع
 وان تراصيا بالارش جاز لكن لا يلزم به واحد منهما الا برضاه فانه
 معارضة عن الجزاء الفاسد ؛ وهكذا يقال في نظائر هذا مثل الصفقة
 اذا تفرقت وقيل يصح البيع في الحلال بقسطه من الثمن كما هو
 ظاهر مذهب احمد فان الذي تفرقت عليه له الفسخ اذا كان لم
 يرض ببيع هذا يقسطه الا مع ذلك ، واصل العقود ان العهد
 لا يلزمه شيء الا بالتزامه او بالزام الشارع له فما التزمه فهو ما عاهد
 عليه فلا ينقض العهد ولا يغدر وما امره الشارع فهو مما اوجب الله
 عليه ان يلتزمه وان لم يلتزمه كما اوجب عليه ان يصل ما امر الله به
 ان يوصل من الايمان بالكتب والرسول وعن صلة الارحام . ولهذا
 يذكر الله في كتابه هذا وهذا كقوله (الذين يوفون بعهد الله
 ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما امر الله به ان يوصل) فما امر
 الله به ان يوصل فهو الزام من الله به وما عاهد عليه الانسان فقد
 التزمه فعليه ان يوفى بعهد الله ولا ينقض الميثاق اذا لم يكن ذلك
 مخالفا لكتاب الله فمن اشترط شرطا مخالفا لكتاب الله مثل ان

يريد به أن يستحل ما حرم الله كالذي يبيع الأمة أو يعتقها وبشرط
 ولها بعد خروجها من ملكه أو يبيع غيره مملوكا وبشرط أن يكون
 ولاؤه له لا لعتق أو يزوج أمته أو قرابته بشرط أن يكون النسب
 لغير الأب أو يكون النسب له فالله قد أمر أن يدعى الولد لأبيه
 وأولاء، أحمة كلحمة النسب فمن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير
 مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ؛ وثبت في الصحيح
 عن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه نهى عن بيع الولاء وعن هبته »
 ولهذا كان عند جمهور العلماء لا يورث أيضا ولكن يورث به كالتنسب
 ويكون الولاء لمكبر فقد تبين أن الحديث حق كما جاء والله أعلم .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال
 « أن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفسوح » وهذا
 يبين أن الوفاء بالشروط في النكاح أولى منها في البيع ولهذا قال
 كثير من السلف والخلف أنه إذا اشترط شرطًا مخالفًا لكتاب الله مثل
 أن يشترط أن يتزوجها بلا مهر أو بمهر محرم فهذا النكاح باطل
 كنكاح الشغار وغيره وهذا مذهب مالك وأحمد في إحدى الروايتين
 وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن نكاح الشغار وأبطله الصحابة
 فانهم أشفروا النكاح عن مهر وهذا هو الملة في خصوص أحمد
 المشهورة عنه وهو قول مالك وغيره ؛ وعند طائفة من أصحابه الملة
 ما قاله الشافعي وهو التشريك في البضع والأول أصح وهذا لا معنى
 له فإن البضع لم يحصل فيه اشتراك بل كل من الزوجين منك بضع
 امرأة بلا شركة وإن كان قد جعل صداقها بضع الأخرى فالمرأة
 الحرة لم تملك بضع المرأة ولا يمكن هذا فإن امرأة لا تتزوج امرأة
 ولكن جعلت لوليها ما تستحقه من المهر فوليتها هو الذي ملك البضع
 وجعل صداقها ملك وليها البضع وهي لم تملك شيئًا فلهذا كان
 شغارا والمكان الشاغر الخالي وشغرت هذه الجهة أي خلت ومن
 صدقت شيئًا ولم يحصل لها ما صدقته لم يكن النكاح لازما
 وأعطيت بدله كما في البيع وأولى « فإن أحق الشروط أن توفوا به
 ما استحللتم به الفروج » ومن التزم بالنكاح من غير أن تحصل

ما رضيته ففسد التزمت بالنكاح الذي لم ترض به وهذا خلاف الكتاب والسنة ؛ وإذا كان مثل هذا لا يجوز في البيع فإنه لا يجوز في النكاح أولى والشارع لم يلزمها النكاح على هذا الوجه ولا هي التزمت وإنما يجب على الإنسان ما يجب بالزام الشارع أو بالتزامه وكلاهما منتف فلا معنى لالتزامها بنكاح لم ترض به وقول من قال المهر ليس بمقتضود كلام لا حقيقة له فإنه ركن في النكاح وإذا شرط فيه كان أو كذا من شرط الثمن لقوله « أن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج » والأموال تباع بالبذل والفروج لا تستباح إلا بالمهر وإنما ينعقد النكاح بدون فرضه وتقريره لا مع نفيه والنكاح المطلق ينصرف إلى مهر المثل وكذلك البيع على الصحيح وهو إحدى الروايتين عن أحمد ينعقد بالسعر فلا فرق كما قد بسط في مواضع .

والذي يثبت بالكتاب والسنة والاجماع أن النكاح ينعقد بدون فرض المهر أي بدون تقديره لأنه ينعقد مع نفيه بل قد قال تعالى (قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم) لما جوز للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوج بلا مهر فرض عليهم أن لا يتزوجوا بلا مهر . وكذلك دل عليه القرآن في غير موضع فلا بد من مهر مسمى مقروض أو مسكوت عن فرضه ثم أن فرض ما تراضيا به والا فلها مهر نسائها كما قضى به النبي صلى الله عليه وسلم في بروع بنت واشق وابن هذا من هذا والناس دائماً يتناكحون مطلقا وقد تراضوا بالمهر المتبادر في مثل ذلك وهو مهر المثل كما يتبايعون دائما وقد تراضوا بالسعر الذي يبيع به البائع في مثل تلك الأوقات كما يشترون الخبز والادم والفاكهة واللحم وغير ذلك من الخبز واللحم والقمي وغير ذلك وقد رضوا أن يعطيهم ثمن المثل وهو السعر الذي يبيع به للناس وهو ما ساع به مثل تلك السلعة في ذلك المكان والزمان وهذا البيع صحيح نص عليه أحمد وإن كان في عده لزام فيه .

وأصل الدين أنه لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ولا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله ولا مكروه إلا ما كرهه الله ورسوله . ولا حلال إلا ما أحله الله ورسوله ولا مستحب إلا ما أحبه الله ورسوله : فالحلال ما أحله الله ورسوله والحرام ما حرمه الله ورسوله والدين ما شرعه الله ورسوله ولهذا انكر الله على المشركين وغيرهم ما حلّوه أو حرموه أو شرعوه من الدين بغير إذن من الله ، والذي يوجب الله على العبد قد يوجب ابتداء كإيجابه الإيمان والترحيد على كل أحد : وقد يوجب لأن العبد التزيم وإيجابه على نفسه ولولا ذلك لم يوجب كالوفاء بالنذر للمستحيات وربما التزيم في العقود المباحة كالبيع والنكاح والطلاق ونحو ذلك إذا لم يكن واجبا وقد يوجب للأمرين كمبايعة الرسول عنى السمع والطاعة له وكذلك مبايعة الأمة المسلمين وكتفاؤهم للناس على العمل بما أمر الله به ورسوله ونفس التزام شرائع الإسلام من هذا الباب فإن المؤمن التزمها بالإيمان وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإن هذه الشهادة توجب عليه الوفاء بموجبيها وهو تصديق الرسول فيما أتى به عن الله وطاعته فيما أوجبه وأمر به لأنه قد بلغ عن الله أن طاعته ومعصيته معصيته وهذه الأصول مبسطة في مواضع ،

والقصد هنا أنه إذا كان أصل الشرع أنه لا يلزمه إلا بالزام الشارع له أو بالتزامه إياه فإذا تنازع الفقهاء في فرع من فروع هذا الأصل رد إليه ومن الفقهاء من يوفى به ومنهم من لا يوفى به بل ينقضه في كثير من المسائل وأن كان الغالب عليه الوفاء به في أكثر المسائل ومن ذلك مسائل النكاح والشروط فيه فإن المساعدة أيضا أن الأصل في الشروط الصحة وال لزوم إلا ما دل الدليل على خلافه وقد قيل بل الأصل فيها عدم الصحة إلا ما دل الدليل على صحته لحديث عائشة : والأول هو الصحيح فإن الكتاب والسنة قد دلا على الوفاء بالعقود والعهود وذم الغدر والنكث ولكن إذا لم يكن المشروط مخالفا لكتاب الله وشروطه فإذا كان المشروط مخالفا لكتاب الله وشروطه كان الشرط باطلا : وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم

« من اشترط شرطا ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط كتاب الله أحق وشرط الله أوثق » فإن قوله من اشترط شرطا أى مشروطا وقوله ليس في كتاب الله أى ليس المشروط في كتاب الله فليس هو مما أباحه الله كاشتراط الولاء لغير المعتق والنسب لغير الولد وكالوطء بغير ملك يمين ولا نكاح ونحو ذلك مما لم يبيحه الله بحال ومن ذلك تزوج المرأة بلا مهر لهذا قال « كتاب الله أحق وشرط الله أوثق » وهذا إنما يقال إذا كان المشروط يناقض كتاب الله وشرطه فيجب تقديم كتاب الله وشرطه ويقال كتاب الله أحق وشرط الله أوثق : وأما إذا كان نفس الشرط والمشروط لم يتصل الله على حله بل سكث عنه فليس هو متناقضا لكتاب الله وشرطه حتى يقال أن كتاب الله أحق وشرطه أوثق فقوله « من اشترط شرطا ليس في كتاب الله » أى مخالفا لكتاب الله وسواء قيل المراد من الشرط المصدر أو المفعول فإنه متى خالف أحدهما كتاب الله خالفه الآخر بخلاف ما سكث عنه فهذا أصل .

والأصل الثاني أن الشرط المخالف لكتاب الله إذا لم يرضى إلا به فقد التزم ما حرمه الله فلا يلزم كما لو قدر المصيبة وسواء كانا عالمين أو جاهلين وإن اشترطه أحدهما على الآخر يعتقد جوازه فلم يرض إلا به فلا يلزم العقد إلا أن يكون التزيم لله فيلزمه ما كان لله دون ما لم يكن كالنذر والوقف والوصية وغير ذلك مما تنفرق فيه الصفة وإن عرف أنه حرام وشرطه فهو كشرط أهل بربرة شرطه باطل ولا يبطل العقد ولا فرق في ذلك بين النكاح والبيع وغير ذلك من العقود فمن الفقهاء من أبطل شروطا كثيرة في النكاح بلا حجة ثم الشرط الباطل في النكاح قالوا يبطل ويصحح النكاح بدونه والمشرط للنكاح لم يرض إلا به والشروط في النكاح أوكد منها في البيع لقوله صلى الله عليه وسلم « أن أحق الشروط أن توفوا به ما استحللتم به الفروج » فلزمهم من مخالفة النصوص في مواضع كثيرة والزام الخلق بشيء لم يلتزموه ولا ألزمهم الله به فأوجبوا على

الناس ما لم يوجب الله ورسوله ثم قد يتوسعون في العلق الذي
يبيغضه الله فيحرمون على الناس ما لم يحرمه الله ورسوله ثم
يبيحون ذلك بالعقود المشروطة فيها الشروط الفاسدة فيحلون
ما لم يحطه الله ورسوله ،

مثال ذلك ان شرط التحليل في العقد شرط حرام باطل
بالانفاق اذا شرط انه يطلقها اذا احلها وكذلك شرط الطلاق بعد
اجل مسمى فشرط انطلاق في النكاح اذا مضى الاجل وبعد التحليل
شرط باطل بالانفاق مع القول بتحريم المتعة فان الله لم يبيح النكاح
الى اجل ولم يبيح نكاح المحلل فقال طائفة من الفقهاء يصح العقد
ويبطل الشرط كما يقوله ابو حنيفة والشافعي واحمد في احدي
الروايتين ويكون العقد لازما ثم كثير من هؤلاء فرق بين التوقيت
وبين الاستراط فقالوا اذا قال تزوجنها الى شهر فهو نكاح متعة
وهو باطل وطرده بعضهم القياس وهو قول زفر وخرج وجهها في
مذهب احمد انه يصح العقد ويلغو التوقيت كما قالوا يلغو الشرط ،

ولو قال في نكاح التحليل على انك اذا احللتها طلقها فهو شرط
كما لو قال في المتعة على انه اذا انقضى الاجل طلقها وان قال فلا نكاح
بينكما فقبل فيه قولان للشافعي وغيره قيل يلحق بالشرط الفاسد
فيصح النكاح وقيل بالتوقيت فيبطل النكاح ؛ ولو شرط الخيار
في النكاح ففيه ثلاثة اقوال هي ثلاث روايات عن احمد قيل يصح
العقد والشرط وقيل يبطلان وقيل يصح العقد دون الشرط فالأظهر
في هذا الشرط انه يصح واذا قيل يبطلانه لم يكن العقد لازما بدونه
فان الأصل في الشرط الوفاء وشرط الخيار مقصود صحيح لا سيما
في النكاح وهذا يبنى على اصل وهو ان شرط الخيار في البيع هل
الأصل صحته او الأصل بطلانه لكن جوز ثلاثة على خلاف الأصل
فالاول قول ائمة الفقهاء مالك واحمد وابن ابي ليلى وابي يوسف
ومحمد والثاني قول ابي حنيفة والشافعي ولهذا يبطل الخيار في
اكثر العقود النكاح وغيره ، وكذلك تعليق النكاح على شرط فيه

ثلاثة أقوال هي ثلاث روايات عن أحمد وأصحاب الشافعي وأحمد
يقرقون في النكاح بين شرط يرفع العقد كالطلاق وبين غيره مثل
اشتراط عدم المهر أو عدم الوطء أو عدم القسم في مذهب أحمد
خلاف في شرط عدم المهر ونحوه .

والنصواب أن كل شرط فأما أن يكون مباحا فيكون لازما يجب
الوفاء به وإذا لم يوف به ثبت الفسخ كاشتراط نوع أو نقد في المهر
ولا يجوز أن يجعل النكاح لازما مع عدم الوفاء بل بخير المشرط
بين أمضائه وبين الفسخ كالشروط في البيع وكالمعيب فإنه يرد
بالمعيب في البيع بالاتفاق وكذلك في النكاح عند الجمهور فإن طائفة
من المدنيين وغيرهم لا ترد العرة بعيب وقالوا النكاح لا يقبل الفسخ
فلم يجوزوا فسخه بعيب ولا شرط ثم هم وسائر المسلمين يؤجبهون
في الإيلاء على المولى أما الفياة وأما الطلاق وهم يقولون يرفع الطلاق
عقب انقضاء المدة إذا لم يقم وإذا كان الزوج غنيثا أو عجيوبا
فعمامتهم على أن لها الفسخ لكن قالوا المرأة لا يمكنها الطلاق والجمهور
على ثبوت الخيار بالجنون والجذام والهرض كما قاله عمر
ابن الخطاب ثم خص الفسخ كثير منهم بما يمنع النكاح كما أبطلوا
النكاح بالشرط الذي يرفع العقد وتفصيل هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا أن مقتضى الأصول والنصوص أن الشرط يلزم
إلا إذا خالف كتاب الله وإذا كان لازما لم يلزم العقد بدون فواته
فالمسلمون كلهم يجوزون أن يشترط في المهر شيئا معينا مثل هذا
العبد وهذه الفرس وهذه الدار ، لكن يقولون إذا تعذر تسليم المهر
لزم بدله فلم يملك الفسخ وإن كان المنع من جهته وهذا ضيق
مخالف للأصول فإن لم يقل بامتناع العقد فقد يتعذر تسليم العقد
فلا أقل من أن تمكن المرأة من الفسخ فإنها لم ترض وتبيع فرجها
إلا بهذا فإذا تعذر فلها الفسخ وهم يقولون المهر ليس هو المقصود
الأصلي فيقال كل شرط فهو مقصود والمهر أوكد من الشمن لكن
هنا الزوجان معقود عليهما وهما عاقدان بخلاف البيع فانها عاقدان

غير معقود عليهما وهذا يقتضي انه اذا فات فالمرأة مخيرة بين الفسخ وبين المطالبة بالبدل كالعيوب في البيع تكون المعقود عليه وهما الزوجان باقيين فالفات جزء من المعقود عليه فهو كالعيوب الحادث في السلعة قبل التمكن من القبض بوجوب الفسخ ولا يبطل العقد بهذا مقتضى الأصول والنصوص والقياس : وان كان الشرط باطلا ولم يعلم المشترط ببطلانه لم يكن العقد لازما بل أن رضى بدون الشرط والا فله الفسخ هذا هو الأصل وأما الزامه بعقد لم يرض به ولا الزمة الشارع أن يعقده فهذا مخالف لأصول الشرع ومخالف للعقل الذي أنزل الله به الكتاب وأرسل به الرسل وهم جعلوا الأصل أن الحرية لا ترد بعيب قالوا فلا يفسخ النكاح بفوات الشرط لأنها من جنس واحد وقالوا يصح النكاح بلا تقدير مهر فيصح مع نفي المهر فيصح مع كل الشروط الفاسدة ، وأما صحته بدون فرض المهر فهذا ثابت بالكتاب والسنة والأجماع لكن إذا اعتقد عدم وجوب المهر فإن المهر المطلق مهر المثل : وأما مع نفيه ففيه قولان في مذهب أحمد وغيره والقول بالبطلان قول أكثر السلف كما في مذهب مالك وغيره وهو الصواب لدلالة الكتاب والسنة عليه وحديث الشافعي قالوا فثبت الفرق بين النكاح والبيع من هاتين الجهتين عدم الفسخ بفوات الشرط الصحيح والصحة مع الشرط الفاسد فيقال إما عدم الفسخ بفوات الشرط الصحيح وقول من قال لا ترد الحرية بعيب فهذا ليس له أصل في كلام الشارع البتة بل متى كان الشرط صحيحا وفات فلحشرطه الفسخ ثم الشرط المتقدم على العقد هل هو كالمقارن له فيه قولان والصحيح أنه كالمقارن وهو ظاهر مذهب أحمد ومالك ووجه في مذهب الشافعي يخرج من نكاح السر والعلائية وأحمد يوجب ماسمي في العلانية وأن كان دون ما اتفق عليه في السر لكن يوجب ذلك ظاهرا ويأمرهم أن يوفوا بما شرطوا له فعلى هذا لم يحكم بالسر لعدم ثبوته وإن ثبت حكم به وإن قيل لا يحكم به مطلقا فلأنهم أظهروا خلاف ما أبطنوه والنكاح مبناه على الإعلان لا على الأسرار وهذا بخلاف شرط لم يظهروا ما يناقضه في

النكاح والبيع وغيرهما فهذا يجب الوفاء به عنده وهو يؤثر في العقد
والشافعي إذا قال في النكاح أنه يؤخذ بالسر ففي غيره أولى .

وأما مسحته مع الشرط المقاد فالأصل فيه عدم تقدير الأمر
وليس هذا شرطاً فاسداً بدليل أن الشرط الفاسد لا يحل
اشترائه وهذا النكاح حلال فلو تزوجها ولم يفرض مهرأ لكن على
عادة الناس أنه لا بد لها من مهر أما أن يتراضيا وأما أن يكون لها مهر
نسائها فهذا النكاح حلال ليس فيه شرط فاسد فمن ذنبك
القياسيين الفاسدين فرقوا بين النكاح والبيع والزموا الناس بنكاح
لم يرضوا به وأن شرطوا فيه شرطاً صحيحاً كما ألزموا الرجل بنكاح
المرأة المعيبة وهو لم يرض بنكاح معيبة ، فإن قيل فلم فرق بين
عيوب الفرج وغيرها قيل قد علم أن عيوب الفرج المألعة من الوطء
لا يرضى بها في العادة فإن المقصود بالنكاح الوطء بخلاف اللون
والطول والقصر ونحو ذلك مما ترد به الأمة فإن الحرية لا تقلب كما
تقلب الأمة والزوج قد رضى رضا مطلقاً وهو له لم يشترط صفة فبانت
بدونها فإن شرط ففيه قولان في مذهب الشافعي وأحمد والصواب
أنه له الفسخ وكذا بالعكس وهو مذهب مالك والشرط إنما يثبت
بخطأ أو عرفاً وفي البيع دل العرف على أنه لم يرض إلا تسليم من
العيوب وكذلك في النكاح لم يرض بمن لا يمكن وطئها والعيب
الذي يمتنع كمال الوطء لا أصله فيه قولان في مذهب أحمد وغيره
وأما ما يمكن معه الوطء وكمال الوطء فلا ينضبط فيه أغراض
الفاس والشارع قد أباح بل أحب له النظر إلى المخطوبة وقال
« إذالقى الله في قلب أحدكم خطبة امرأة فليستظر إليها فإنه أحرى
أن يؤدم بينهما » وقال ابن خطيب امرأة من الأنصار « انظر إليها
فإن في أعين الأنصار شيئاً » وقوله أحرى أن يؤدم بينهما يدل على
أنه إذا عرفها قبل النكاح دام الود وأن النكاح يصح وأن لم يرها
فاته له يعال الرؤية بأنه يصح معه النكاح فدل على أن الرؤية
لا تعيب وأن النكاح يصح بدونها وليس من عادة المسلمين ولا غيرهم

أن يصفوا المرأة المبكوة بذلك بخلاف البيع فإنه إما أن لا يصح
 وإما أن يملك خيار الرؤية وإن كان قد ذكر في مذهب أحمد رواية
 ضعيفة أنه يصح بلا رؤية ولا صفة ولا يشترط خياو وهذا الفرق
 إنما هو للفرق بين النساء والأموال إن النساء يرضى بهن في العادة
 على الصفات المختلفة والأموال لا يرضى بها على الصفات المختلفة
 إذ المقصود بها التمول وهو يختلف باختلاف الصفات والمقصود
 بالنكاح الصاهرة والاستمتاع وذلك يحصل مع اختلاف الصفات
 فهذا فرق شرعي معقول في عرف الناس أما إذا عرف أنه لم يرض
 لاشتراطه صفة فبانت بخلافها وبالعكس فالزامه بما لم يرض به
 مخالف للأصول ولو قال ظننتها أحسن مما هي أو ما ظننت ليها
 هذا ونحو ذلك كان هو المقرط حيث لم يسأل عن ذلك ولم يرها
 ولا أرسل من رآها وليس من الشرع ولا العادة أن توصف له في
 العقد كما توصف الإمام في السلم فإن الله صان الحرائر من ذلك
 وأحب سرهن ولهذا نهيت المرأة أن تعقد نكاحا فإذا كن لا يباشرن
 العقد فكيف يوصفن؟ وأما الرجل فأمره ظاهر براه من يشاء فليس
 فيه عيب يوجب الرد والمرأة إذا قرط الزوج فالطلاق بيده

أسماء الله الحسنى

قال المعتز في الأسماء الحسنى النور الهادي يجب تأويله قطعا إذ النور كيفية قائمة بالجسمية وهو ضد الظلمة وجل الحق سبحانه أن يكون له ضد ولو كان نورا لم تجز إضافته إلى نفسه في قوله (مثل نوره) فتكون إضافة الشيء إلى نفسه وهو غير جائز وقوله (الله نور السموات والأرض) قال المفسرون يعني هادي أهل السموات والأرض وهو ضعيف لأن ذكر الهادي بعده يكون تكرارا وقيل منور السموات بالكواكب وقيل بالأدلة والحجج الباهرة والنور جسم لطيف شفاف فلا يجوز على الله : والتأويل مروى عن ابن عباس وأبي سالم وهذا يبطل دعواه أن التأويل يبطل الظاهر ولم ينقل عن السلف ولو كان نورا حقيقة كما يقوله المشبه لوجب أن يكون الضياء ليلا ونهارا على الدوام : وقوله (أنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا) ومعلوم أنه صلى الله عليه لم يكن السراج المعروف وإنما سمي سراجا بالهدى الذي جاء به ووضوح أدلته بمنزلة السراج المشر : وروى عن ابن عباس في رواية أخرى وأبى العالية والحسن يعني منور السموات والأرض شمسها وقمرها ونجومها ، ومن كلام العارفين النور هو الذي نور قلوب الصادقين بتوحيده ونور أسرار المحبين بتأييده ، وقيل هو الذي أحيا قلوب العارفين بتور معرفته ونفوس العابدين بنور عبادته .

والجواب : أن هذا الكلام ومثاله ليس باعتراض علينا وإنما هو ابتداء نقض حرمة من لمسا يظن أنه يترمنا أو يظن أنا نقوله على الوجه الذي حكاه وقد قال تعالى (اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن اثم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اياكم والظن والظن

فإن الظن أكذب الحديث « وإذا كان في الكلام أخبار عن الغير بأنه يقول أقوالاً باطلة في العقل والشرع وفيه رد تلك الأقوال كان هذا كذبا وظلما فتعود بالله من ذلك ثم مع كونه ظلما لنا ياليتنا كان كلامنا صحيحا مستقيما فكنا نحلله من حقا ويستفاد ما فيه من العلم ولكن فيه من تحريف كتاب الله والاحاد في آياته واسمائه والكذب والظلم والعدوان الذي يتعلق بحقوق الله مما فيه لكن عفونا عن حقا فحق الله اليه لا إلى غيره ونحن نذكر من القيام بحق الله ونصر كتابه ودينه ما يليق بهذا الموضع فإن هذا الكلام ذكره في نفسه من التناقض والفساد ما لا أظن تمكنه من ضبطه من وجوه أحدها أنه قال في أوله النور كيفية قائمة بالجسمية ثم قال في آخره جسم لطيف شفاف فذكر في أول الكلام أنه عرض وصفه وفي آخره جسم وهو جوهر قائم بنفسه .

الثاني أنه ذكر عن المفسرين أنهم تناولوا ذلك بالهاتدي وضعفا ذلك ثم ذكر في آخره أن من كلام العارفين أن النور هو الذي نور قلوب الصادقين بتوحيده وأسرار المحبين بتأييده وأحبسا قلوب العارفين بنور معرفته وهذا هو معنى الهادي الذي ضعفه أولا فيضعفه أولا ويجعله من كلام العارفين وهي كلمة لها صعوبة في القلوب وإنما هو من كلام بعض المشايخ الذين يتكلمون بنوع من الوعظ الذي ليس فيه تحقيق فإن الشيخ أبا عبد الرحمن ذكر في تحقيق التفسير من الإشارات التي بعضها كلام حسن مستفاد وبعضها مكذوب على قائله مفترى كالمثقول عن جعفر وغيره وبعضها من المنقول الباطل المردود فإن إشارات المشايخ الصوفية التي يشيرون بها تنقسم إلى إشارة حالية وهي إشارتهم بالقلوب وذلك هو الذي امتازوا به وليس هذا موضعه وينقسم إلى الإشارات المتعلقة بالأقوال مثل ما يأخذونها من القرآن ونحوه فتلك الإشارات هي من باب الاعتبار والقياس والحاق ما ليس بمنصوص بالمنصوص مثل الاعتبار والقياس الذي يستعمله الفقهاء في الأحكام لكن هذا

يستعمل في الترفيب والترهيب وفضائل الأعمال ودرجات الرجال
وتجو ذلك فان كانت الإشارة اعتبارية من جنس القياس الصحيح
كانت حسنة مقبولة وان كانت كالقياس الضعيف كان لها حكمة
وان كان تحريفا للتكلام على غير تأويله كانت من جنس كلام الغرامطة
والباطنية والجهمية فتدبر هذا فاني قد اوضحت هذا في قاعدة
الاشارات .

الوجه الثالث في تناقضه فانه قال التاويل منقول عن ابن عباس
وانس وسالم ولم يذكر الا ثلاثة اقوال احسدها انه هادى اهل
السوات والارض وقد ضعف ذلك فان كان المنقول وهذا الضعيف
قياسية المسعى اذ لم ينقل عن السلف في جميع كلامه الى هنا
شيئا عن السلف الا هذا الذي ضعفه واوهاه وان كان المنقول عن
عؤلاء الثلاثة انه مشور السموات بالكواكب كان متناقضا من وجه
آخر وهو انه قد ذكر فيما بعد ان هذا روى عن ابن عباس في رواية
أخرى وابى العالمة والحسن انه منورها بالشمس والقمر والنجوم
وهذا يوجب ان يكون المنقول عن ابن عباس والاثنيين أولا غير المنقول
عنه في رواية أخرى وعن ليس معه في الاولى وان كان نوره بالحجج
الباهرة والادلة كان متناقضا فان هذا هو معنى الهادى اذ نصبه
للادلة والحجج هي من هدايته وهو قد ضعف هذا القول كما ادرى
من ايها العجب امن حكايته القولين اللذين احدهما داخل في معنى
الآخر ام من تضيقه لقول المسائل الذي يوجب تضيق الاثنيين
وهو لا يدري انه قد ضعفهما جميعا فيجب على الانسان ان يعرف
معنى الاقوال المتقولة ويعرف ان الذي يضعفه ليس هو الذي
عظمه .

الوجه الرابع انه قد تبين انه لم ينقل عن ابن عباس وانس
وسالم الا القول الذي ضعفه او ما يدخل فيه فانه ان كان قولهم
الهادى فقد صرح بضعفه وان كان مقبم الأدلة فهو من معنى الهادى
وان كان المنور بالكواكب فقد جعله قولا آخر وان كان ما ذكره عن

بعض العارفين فهو أيضا داخل في الياضي وإذا كان قد اعترف
بضعفه ما حكاه من ابن عباس وأبي سالم لم يكن فيه حجة علينا
فتبين ما ذكره عن السلف أما أن يكون ميظلا في نفسه أو مفتريا
بضعفه وعلى التقديرين لا حجة علينا بذلك .

والوجه الخامس أنه أساء الأدب على السلف إذ يذكر عنهم
ما يضعفه وأظهر للناس أن السلف كانوا يتأولون ليحتج بذلك على
التأويل في الجملة وهو قد اعترف بضعف هذا التأويل ومن احتج
بحجة وقد ضعفها وهو لا يعلم أنه قد ضعفها فقد رمى نفسه بسوءه
ومن رمى بسوء البغي صرع به والله لا يهدي القوم الظالمين .

الوجه السادس قوله هذا يبطل دعواه أن التأويل دفع الظاهر
ولم ينقل عن السلف فإن هذا القول لم نقله وإن كنت قلته فهو لم
ينقل إلا ما عرف أنه ضعيف والضعيف لا يبطل شيئا فهذه الوجوه
في بيان تناقضه وحكاية عما لم نقله .

وأما بيان فساد الكلام فنقول أما قوله يجب تأويله قطعا
فلا نسلم أنه يجب تأويله ولا نسلم أن ذلك لو وجب قطعي
بل جماهير المسلمين لا يتأولون هذا الاسم وهذا مذهب السلفية
وجمهور الصغانية من أهل الكلام والفقهاء والصوفية وغيرهم وهو
قول أبي سعيد بن كلاب ذكره في الصفات ورد على الجهمية تأويل
اسم النور وهو شيخ المتكلمين الصغانية الأشعرية الشيخ الأول
وحكاه عنه أبو بكر بن قورك في كتاب مقالات أبي الأشعرى ولم يذكر
تأويله إلا عن الجهمية المفسومين باتفاق وهو أيضا قول أبي الحسن
الأشعرى ذكره في الموجز ، وأما قوله أن حسنا ورد في الأسماء
الحسنى فالحديث الذي ذكر فيه ذلك هو حديث الترمذي روى
الأسماء الحسنى في جامعها من حديث الوليد بن مسلم عن شعيب
عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة ورواها ابن ماجه في سننه
من طريق محمد بن زياد القطواني عن هشام بن حسان عن محمد بن
سبر بن أبي هريرة وقد اتفق أهل المعرفة بالحديث على أن هاتين

الروايتين ليستا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وإنما كل منهما
 من كلام بعض السلف فالوليّد ذكرها عن بعض شيوخه الشاميّين
 كما جاء مفسراً في بعض طرق حديثه ولهذا اختلفت أعيانها عنه
 فروى عنه في الروايات من الأسماء بدل ما يذكر في الروايات الأخرى
 لأن الذين جمعوها قد كانوا يذكرون هذا تارة وهذا تارة واقتلدوا
 هم وغيرهم أن الأسماء الحسنی التي من أحصاها دخل الجنة
 ليست شيئاً معيّن بل من أحصى تسعة وتسعين اسماً من أسماء الله
 دخل الجنة أو أنها وإن كانت معينة فالاسم الذي يتفقان في معناه
 يقوم أحدهما مقام صاحبه كالأحد والواحد فإن في رواية هشام بن
 عمار عن الوليد بن مسلم عنه رواها عثمان بن سعيد الأحمد بدل
 الواحد والمعطى بدل المقنى وهما متقاربان وعند الوليد هذه الأسماء
 بعد أن روى الحديث عن خليل بن دعلج عن قتادة عن ابن سيرين
 عن أبي هريرة ثم قال هشام وحديثنا الوليد حديثنا سعيد بن
 عبد العزيز مثل ذلك وقال كلها في القرآن هو الله الذي لا اله الا هو
 مثل ما ساقها الترمذي لكن الترمذي رواها عن طريق صفوان بن
 صالح عن الوليد عن شعيب وقد رواها ابن أبي عاصم وبين ما ذكره
 هو والترمذي خلاف في بعض المواضع وهذا كله مما يبين لك أنها
 من الموصول المدرج في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في
 بعض الطرق وليست من كلامه ولهذا جمعها قوم آخرون على غير
 هذا الجمع واستخرجوها من القرآن منهم سفيان بن عيينة والامام
 أحمد بن حنبل وغيرهم كما قد ذكرت ذلك فيما تكلمت به قديماً
 على هذا وهذا كله يقتضي أنها عندهم مما يقبل البديل فإن الذي
 عليه جماهير المسلمين أن أسماء الله أكثر من تسعة وتسعين قالوا
 ومنهم الخطائي قوله « أن الله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها »
 التقيد بالعدد عائد إلى الأسماء الموصوفة بأنها هي هذه الأسماء
 فهذه الجملة وهي قوله « من أحصاها دخل الجنة » صفة للتسعة
 والتسعين ليست جملة مبتدأة ولكن موضعها الت نصب ويجوز أن
 تكون مبتدأة والمعنى لا يختلف والتقدير أن الله أسماء يقدر هذا

العدد من احصاءها دخل الجنة كما يقول القائل ان مائة غلام اعددتهم
للمتق والغب درهم اعددتها للحج فالتقيده بالعدد هو في الموصوف
بهذه الصفة لا في اصل استحقاقه لذلك العدد فانه لم يقل ان اسماء
الله تسعة وتسعون قال ويدل على ذلك قوله في الحديث الذي رواه
احمد في المسند « اللهم اني اسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك
أو أنزلته في كتابك أو علمته احدا من خلقك أو استأثرت به في علم
الغيب عندك » فهذا يدل على ان لله اسماء فوق تسعة وتسعين
يخصيها بعض المؤمنين .

وأیضا فنوله « ان لله تسعة وتسعين » تقييد بهذا العدد بمنزلة
قوله تعالى (عليها تسعة عشر) فلما استقلوهم قال (وما يعلم
جنود ربك الا هو) فان لا يعلم اسماءه الا هو اولى وذلك ان هذا
لو كان قد قيل منفردا لم يفد النفي الا بمفهوم العدد الذي هو دوين
مفهوم الصفة والنزاع فيه مشهور وان كان المختار عندنا ان
التخصيص بالذكر بعد قيام مقتضى العموم يفسد الاختصاص
بالحكم فان العدل من وجوب التعميم الى التخصيص ان لم يكن
للاختصاص بالحكم والا كان تركا للمقتضى بلا معارض وذلك ممنوع
فقوله « ان لله تسعة وتسعين » قد يكون للتحصيل بهذا العدد
قوائد غير الحصر ومنها ذكر ان احصاءها يورث الجنة فانه لو ذكر
هذه الجملة منفردة وأتبعها بهذه منفردة لكان حسنا فكيف والاصل
في الكلام الاتصال وعدم الانفصال فتكون الجملة الشرطية صفة
لا ابتدائية فهذا هو الراجح في العربية مع ما ذكر من الدليل ولهذا
قال « انه وتر يحب الوتر » ومحبه لذلك تدل على انه متعلق
بالاحصاء أي يحب ان يحصى من اسمائه هذا العدد واذا كان اسماء
الله اكثر من تسعة وتسعين لمكن ان يكون احصاء تسعة وتسعين
اسما يورث الجنة مطلقا على سبيل البدل فهذا يوجب قول هؤلاء
وان كان كثير وكثير من الناس يجعلها اسماء مائة ثم من هؤلاء
من يقول ليس الا تسعة وتسعون اسما فقط وهو قول ابن حزم
وطائفة والاكثر من منهم يقولون وان كانت اسماء الله اكثر لكن

الموعود بالجنة إن احصاها هي معينة وبكل حال فتعيينها ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم باتفاق أهل المعرفة بحديثه ولكن روى في ذلك عن السلف أنواع ، من ذلك ما ذكره الترمذي ومنها غير ذلك فإذا عرف هذا فقولنا في أسمائه الحمدي « النور الهادي » لو نازعه منازع في ثبوت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم تكن له حجة ولكن جاء ذلك في أحاديث صحاح مثل قوله في الحديث الذي في الصحيحين عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن » الحديث ، وفي الصحيح عن أبي ذر قال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك فقال نور أنى أراه » أو قال « رأيت نوراً » فالذي في القرآن والحديث الصحيح إضافة النور بقوله (نور السموات والأرض) أو (نور السموات والأرض ومن فيهن) .

وأما قوله أن النور كيفية قائمة فنقول النور المخلوق محسوس لا يحتاج إلى بيان كيفية لكنه نوعان أعيان وأعراض فالأعيان هو نفس جرم النار حيث كانت نور السراج والمصباح الذي في الحاجة وغيره وهى النور الذى ضرب الله به المثل ومثل القمر فان الله سبحانه نورا فقال (جعل الشمس ضياء والقمر نورا) ولا ريب أن النار جسم لطيف شفاف وأعراض مثل ما يقع من شعاع الشمس والقمر والنار على الأجسام الصلبة وغيرها فان المصباح اذا كان في البيت أضاء جوانب البيت فلهذا النور والشعاع الواقع على الجدران والسقف والأرض هو عرض وهو كيفية قائمة بالجسم ؛ وقد يقال ليس الصفة القائمة بالنار والقمر ونحوهما نورا فيكون الاسم على الجوهر تارة وعلى صفة أخرى ولهذا يقال لضوء النهار نور كما قال تعالى (وجعل الظلمات والنور) ومن هذا تسمية الليل ظلمة والنهار نورا فانهما عرضان وقد قيل هما جوهران وليس ههنا موضع يسطر ذلك فتبين أن اسم النور يتناول هذين والمعرض ذكر أولا عند العرض وذكر ثانيا عند الجسم فتناقض وكأنه أخذ ذلك

من كلامي ولم يهتدوا لوجه الجمع وكذلك اسم الحق يقع على
ذات الله تعالى وعلى صفاته القدسية القديمة كقول النبي صلى الله
عليه وسلم « أنت الحق وقولك الحق والجنة حق والنار حق
والتيهون حق ومحمد حق » .

وأما قول المعارض النور ضد الظلمة وجل الحق أن يكون له
ضد فيقال لم لم تفهم معنى الضد المنفى عن الله فإن الضد يراد به
ما يمتنع ثبوت الآخر كما يقال في الأعراض المتضادة مثل السواد
والبياض ؛ ويقول الناس الضدان لا يجتمعان ويمتنع اجتماع
الضدين وهذا التضاد عند كثير من الناس لا يكون إلا في الأعراض
وأما الأعيان فلا تضاد فيها فيمتنع عند هذا أن يقال لله ضد أو ليس
له ضد ومنهم من يقول يتصور التضاد فيها والله تعالى ليس له ضد
يمتنع ثبوته ووجوده فلا ريب بل هو القاهر الغالب الذي لا يقبل له

وقد يراد بالتضاد المعارض لأمره وحكمه وإن لم يكن مانعا من
وجود ذاته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من حالت شفاعته
دون حاد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره » رواه أبو داود
وتسمية المخالف لأمره وحكمه ضدا كتسميته عدوا وبهذا الاعتبار
فالمعادون المضادون لله كثيرون فاما على التفسير الأول فلا ريب أنه
ليس في الأمر مضادا لله لكن المضاد يقع في نفس الكفار فإن الباطل
ضد الحق والكذب ضد الصدق فمن اعتقد في الله ما هو منزعه عنه
كان هذا ضدا للايمان الصحيح به .

وأما قوله النور ضد الظلمة وجل الحق أن يكون له ضد فيقال
له ؛ والحق ضد الميت والعليم ضد الجاهل والسميع والبصير والذي
يتكلم ضد الأصم الأعمى الأكم وهكدا سائر ما سمي الله به من
الأسماء لها أضداد وهو منزعه عن أن يسمى بضدادها فيجل الله أن
يكون ميتا أو عاجزا أو فقيرا ونحو ذلك .

وأما وجود مخلوق له موصوفا بضد صفته مثل ؛ وجود الميت
والجاهل والفقير والظالم فهذا كثير بل قالوا اسمائه لها أضداد

موجودة في الموجودين ولا يقال لأولئك أنهم أضداد الله ولكن يقال
أنهم موصوفون بضد صفات الله فان التضاد بين الصفات إنما يكون
في المحل الواحد لا في محلين فمن كان موصوفاً بالموت ضادته الحياة
ومن كان موصوفاً بالحياة ضاده الموت والله سبحانه يمتنع أن يكون
ظلمة أو موصوفاً بالظلمة كما يمتنع أن يكون ميتاً أو موصوفاً بالموت
فهذا المعترض أخذ بلفظ الضد بالاشتراك ولم يميز بين الضد الذي
يضاد ثبوته ثبوت الحق وصفاته وأفعاله وبين أن يكون في مخلوقاته
ما هو موصوف بضد صفاته وبين ما يضاده في أمره ونهيهِ فالضد
الأول هو الممتنع وأما الآخران فوجودهما كثير لكن لا يقال أنه ضد
الله فان المتضاد بضد صفاته لم يضاده ، والذين قالوا النور ضد
الظلمة قالوا يمتنع اجتماعهما في عين واحدة لم يقولوا أنه يمتنع أن
يكون شيء موصوفاً بأنه نور وشيء آخر موصوفاً بأنه ظلمة فلم يتدبر
العاقل هذا التخليط .

وأما قوله لو كان نوراً لم يجر أضادته إلى نفسه في قوله (مثل
نوره) فالكلام عليه من طريقين - أحدهما أن نقول النص في كتاب الله
وسنة رسوله قد سمي الله نور السموات والأرض وقد أخبر الناس
أن الله نور وأخبر أيضاً أنه يحتاج بالنور فهذه ثلاثة أنوار في النص
وقد تقدم ذكر الأول : وأما الثاني قوله (وأشرقته الأرض بنور ربها)
وفي قوله (مثل نوره) وفيما رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله
ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن الله خلق
نخلقه في ظلمة وألقى عليه من نوره فمن أضاه من ذلك النور اهتدى
ومن أخطأ ضل » ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في دعاء الطائف
« أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا
والآخرة أن ينزل بي سخطك أو يحل علي غضبك » رواه الطبراني
وغیره ، ومنه قول ابن مسعود أن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار
نور السموات من نور وجهه ، ومنه قوله ما رواه مسلم في صحيحه
عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قام فينا رسول
الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات فقال إن الله لا ينام ولا ينبغي

له ان ينام ينقضى القسط ويرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل
النهار قبل عمل الليل حجاب النور أو النار لا كشفه لا حرقت
سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه « فهذا الحديث فيه ذكر
حجابه فان تردد الراوي في لفظ النار والنور لا يمنع ذلك فان مثل
هذه النار الصافية التي كنم بها موسى يقال لها نار ونور كما سمي
الله نار المصباح نورا بخلاف اثار المظلمة كنار جهنم فلك
لا تسمى نورا »

فالاسماء ثلاثة اشراق بلا احراق وهو النور المحض كالشمس
واخرق بلا اشراق وهي النار المظلمة وما هو نار ونور كالشمس
ونار المصابيح التي في الدنيا توصف بالأميرين واذا كان كذلك صح
ان يكون نور السموات والأرض وان يضاف اليه النور وليس
المضاف هو عين المضاف اليه الطريق الثاني ان يقال هذا يرد عليكم
لا يختص بمن يسميه بها سمي به نفسه وبينه فأتت اذا قلت هاد
أو منور أو غير ذلك فالسمة نورا هو الرب نفسه ليس هو النور
المضاف اليه فاذا قلت هو الهادي فنوره الهادي جعلت أحد النورين
عينا قائمة والآخر صفة فهكذا يقول من يسميه نورا واذا كان
السؤال يرد على القولين والقائلين كان تخصيص احدهما بأنه مخالف
ظلمة ولددا في الحاجة أو جهلا وضلالا عن الحق »

وأما ما ذكره من الأقوال فلا ريب ان للناس فيها من الأقوال
أكثر مما ذكره والموجود بأبدى الأمة من الروايات الصادقة والكاذبة
والآراء المصيبة والمخطئة لا يحصيه إلا الله والكلام في تفسير أسماء
الله وصفاته وكلامه فيه من الفث والسمين ما لا يحصيه إلا رب
العالمين وانما الشأن في الحق والعلم والدين »

وقد كتبت قديما في بعض كتب بعض الأكابر ان العلم ما قام
عليه الدليل والنافع منه ما جاء به الرسول فالشأن في ان تقول علما
وهو النقل الصدق والبحث المحقق فان ما سوى ذلك وان خرق
مثله بعض الناس خرف مزورق والا فباطل مطلق مثلما ذكره في هذه

الآية وغيرها وهذه الكتب التي يسميها كثير من الناس كتب التفسير
 فيها كثير من التفسير متقولات عن السلف مكتوبة عليهم ، وقول
 على الله ورسوله بالرأي المجرد بل بمجرد شبهة قياسية أو شبهة
 أدبية فالمفسرون الذين ينقل عنهم لم يسمهم ومع هذا فقد ضعف
 قواهم بالباطل فإن القوم فسروا التور في الآية بأنه الهادي لم يفسروا
 التور في الأسماء الخمسة : والحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم
 فلا يصح تضعيف قولهم بما ضعفه ونحن إنما ذكرنا ذلك لبيان
 تناقضه وأنه لا يحتج علينا بشيء يروج على ذي لب فإن التناقض
 أول مقامات الفساد وهذا التفسير قد قاله طائفة من المفسرين ،
 وأما كونه ثابتا عن ابن عباس أو غيره فهذا مما لم يثبت : ومعلوم
 أن في كتب التفسير من النقل عن ابن عباس من الكذب شيء كثير من
 رواية الكلبي من أبي صالح وغيره فلا بد من تصحيح النقل لتقوم
 الحجة فلما راجع كتب التفسير التي يحزر فيها النقل مثل تفسير
 محمد بن جرير الطبري الذي ينقل فيه كلام السلف بالأسناد
 ويعرض عن تفسير مقاتل والكلبي وقبيله تفسير يحيى بن مخلد
 الأندلسي وعبد الرحمن بن إبراهيم دحيم الشامي وعبد بن حميد
 الكشي وغيرهم أن لم يضعه إلى تفسير الإمام اسحق بن راهويه
 وتفسير الإمام أحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة الذين هم أعلم
 أهل الأرض بالتفسير الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم
 وآثار الصحابة والتابعين كما هم أعلم الناس بحديث النبي صلى الله
 عليه وسلم وآثار الصحابة والتابعين في الأصول والفروع وغير ذلك
 من العلوم فاما أن يثبت أصلا يجعله قاعدة بمجرد رأي فهذا إنما
 ينطق على الجهال بالدلائل الأقسام في المسائل وبمثل هذه المتقولات
 التي لا يميز صدقها من كذبها والمقولات التي لا يميز صدقها من
 خطئها ضل من ضل من أهل المشرق في الأصول والفروع والفقه
 والتصوف ،

وما أحسن ما جاء هذا في آية النور التي قال الله تعالى فيها
 لا ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) ثم نسأل الله أن يجعل

لنا تورا ، ثم نقول هذا القول الذي قاله بعض المفسرين في قوله
 (الله نور السموات والارض) أي هادي أهل السموات لا يضرنا
 ولا يخالف ما قلناه فانهم قالوه في تفسير الآية التي ذكر النور فيها
 مضافا لم يذكره في تفسير مطلق كما ادعيت أنت من ورود الحديث
 به فإين هذا من هذا ثم قول من قال من السلف هادي أهل
 السموات والارض لا يمنع أن يكون في نفسه نورا فإن من عادة
 السلف في تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسرين من الأسماء
 أو بعض أنواعه ولا ينفي ذلك ثبوت بقية الصفات للمسمى بل قد
 يكونان متلازمين ولا دخول لبقية الأنواع فيه : وهذا قد فرغنا غير
 مرة في الفوائد المتقدمة ومن تدبره علم أن أكثر أقوال السلف في
 التفسير متفقة غير مختلفة ، مثال ذلك قول بعضهم في الصراط
 المستقيم أنه الاسلام : وقول آخر أنه القرآن وقول آخر أنه السنة
 والجماعة وقول آخر أنه طريق العبودية : فهذه كلها صفات له
 متلازمة لا مباينة ، وتسميته بهذه الأسماء بمنزلة تسمية القرآن
 والرسول بأسمائه بل بمنزلة أسماء الله الحسنى .

ومثال الثاني قوله تعالى (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد
 ومنهم سابق بالخيرات) فذكر منهم صنفا من الأصناف والعبد
 يعم الجميع فالظالم لنفسه المخل ببعض الواجب : والمقتصد القائم
 به ، والسابق المتقرب بالتواخل بعد انقراض وكل من الناس يدخل
 في هذا بحسب طريقته والتفسير والترجمة ببيان النوع والجنس
 ليقترب القوم على المخاطب كما لو قال الأعجمي ما الخبز فقيلا
 له هذا وأشير إلى الرغيف فالفرض الجنس لا هذا الشخص ، فهكذا
 تفسير كثير من السلف وهو من جنس التعليم فقول من قال نور
 السموات والارض هادي أهل السموات والارض كلام صحيح فإن
 من معاني كونه نور السموات والارض أن يكون هاديا لهم أما أنهم
 تفقوا ما سوى ذلك فهذا غير معلوم وأما أنهم أرادوا ذلك فقد ثبت
 عن ابن مسعود أنه قال أن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور
 السموات من نور وجهه ، وقد تقدم من النبي صلى الله عليه وسلم

من ذكر وجهه : وفي رواية الثور ما فيه كفاية فهذا بيان معنى غير الهداية وقد أخبر الله في كتابه أن الأرض تشرق بنور ربها فإذا كانت تشرق من نوره كيف لا يكون هو تورا ولا يجوز أن يكون هذا النور المضاف إليه إضافة خلق وملك واصطفاء كقوله (ناقة الله) ونحو ذلك لوجوه : أحدها أن النور لم يضاف قط إلى الله إذا كان صفة لا عيان قائمة فلا يقال في المصاحح التي في الدنيا أنها نور الله ولا في الشمس والقمر وإنما يقال كما قال عبد الله بن مسعود إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه : وفي الدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلىح عليه أمر الدنيا والآخرة » .

الثاني أن الأنوار المخلوقة كالشمس والقمر تشرق لهذا الأرض في الدنيا وليس من نور إلا وهو خلق من خلق الله ، وكذلك من قال منور السموات والأرض لا ينافي أنه نور وكل منور نور فهما متلازمان ، ثم إن الله تعالى ضرب مثل نوره الذي في قلوب المؤمنين بالنور الذي في المصباح وهو في نفسه نور وهو منور لغيره فإذا كان نوره في القلوب هو نور وهو منور فهو في نفسه أحق بذلك وقد علم أن كل ما هو نور فهو منور .

وأما قول من قال معناه منور السموات بالكواكب فهذا إن أراد به قوله أن ذلك من معنى كونه نور السموات وأنه أراد به ليس لكونه نور السموات والأرض معنى إلا هذا فهو مبطل لأن الله أخبر أنه نور السموات والأرض والكواكب لا يحصل نورها في جميع السموات والأرض وأيضا فإنه قال (مثل نوره كمسكاة فيها مصباح) فضرب المثل لنوره الموجود في قلوب المؤمنين فعلم أن النور الموجود في قلوب المؤمنين نور الإيمان مراد من الآية لم يضربها على النور الحسي الذي يكون للكواكب وهذا هو الجواب عما رواه عن ابن عباس في رواية أخرى وأبي العالية والحسن بعد المطالبة بصحة الثقل والظن ضعفه عن ابن عباس لأنهم جعلوا ذلك من

معاني النور أما أن يقولوا قوله (الله نور السموات والأرض) ليس
معناه إلا التنوير بالشمس والقمر والنجوم فهذا باطل قطعا .

وقد قال صلى الله عليه وسلم « أنت نور السموات والأرض
ومن فيهن » ومعلوم أن العميان لاحظ لهم في ذلك ومن يكون بينه
وبين ذلك حجاب لا حقد له في ذلك والموتى لا تصيب لهم من ذلك
وأهل الجنة لا تصيب لهم من ذلك فإن الجنة ليس فيها شمس
ولا قمر كيف وقد روى أن أهل الجنة يعلمون الليل والنهار بأنوار
تظهر من العرش مثل ظهور الشمس لأهل الدنيا فثلث الأنوار
خارجة عن الشمس والقمر .

وأما قوله قد قيل بالأدلة والحجج فهذا بعض معنى الهادئ
وقد تقدم الكلام على قوله هذا يبطل قوله أن التأويل دفع للظاهر
ولم ينقل عن السلف فان هذا الكلام مكذوب على وقد ثبت تناقض
صاحبه وأنه لم يذكر عن السلف إلا ما اعترف به بضعفه .

وأما الذي أقوله الآن واكتبه وأن كنت لم أكتبه فيما تقدم
من اجوبيتي وإنما أقوله في كثير من المجالس ان جميع ما في القرآن
من آيات الصفات فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها وقد
طالمت التفسير المنقولة عن الصحابة وما روي من الحديث ووقفت
من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من
مائة تفسير فلم أجده في ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه
قال شيئا من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها
المفهوم المعروف بل عنهم من تقرير ذلك وتثبيتته وبيان أن ذلك من
صفات الله ما يخالف كلام المتأولين مالا يحصىه إلا الله وكذلك فيما
يذكرونه أكثرين وذاكرين عنهم شيء كثير وتمام هذا أني لم أجدهم
تنازعوا إلا في مثل قوله تعالى (يوم يكشف عن ساق) فروى عن
أبي عباس وطائفة أن المراد به الشدة أن الله يكشف عن الشدة في
الآخرة ، وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدوها في الصفات للحديث

الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين ولا ريب أن ظاهر القرآن يدل على أن هذه من الصفات فانه قال (يوم يكشف عن ساق) نكرة في الاثبات لم يصفها الى الله ولم يقل عن ساقه فمع عدم التعريف بالاضافة لا يظهر أنه من الصفات الا بدليل آخر ومثل هذا ليس يتأويل انما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومعناها ومقتضاها المعروف ولكن كثير من هؤلاء يجعلون اللفظ على ما ليس مدلولاً له ثم يريدون صرفه عنه ويجعلون هذا تأويلاً وهذا خطأ من وجهين كما قدمناه غير مرة .

واما قوله لو كان نورا حقيقة كما نقوله المشبهة لوجب أن يكون الأشياء ليلاً ونهاراً على الدوام فحين نقول بوجوب ما ذكره من هذا القول فإن المشبهة يقولون انه نور كالشمس والله تعالى ليس كمثله شيء فانه ليس كشيء من الأنوار كما أن ذاته ليست كشيء من الدورات لكن ما ذكره له حجة عليهم فانه يمكن أن يكون نورا يحجب عن خلقه كما قال في الحديث « حجاب النور أو النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » لكن هنا غلط في النقل وهو اضافة هذا القول الى المشبهة فان هذا من اقوال الجهمية المعلقة أيضاً كما ريسى فانه كان يقول انه نور وهو كبير الجهمية وان كان قصده بالمشبهة من اثبت ان الله نور حقيقة فالمثبتة للصفات كلهم عنده مشبهة وهذه لغة الجهمية المحضة يسعون كل من اثبت الصفات مشبهها فقد قدمنا أن ابن كلاب والأشعري وغيرهما ذكرا أن نفى كونه نورا في نفسه هو قول الجهمية والمعتزلة وانهما اثبتا انه نور وقررا ذلك همسا وأكابر أصحابهما فكيف بأهل الحديث والامة السنة وأول هؤلاء المؤمنين بالله وبأسمائه وصفاته ورسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال الذي عارض به المعتزض فقال صلى الله عليه وسلم « حجاب النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » فأخبر أنه

حجب عن المخلوقات بحجابه النور أن تدركها سبحات وجهه وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه فهذا الحجاب عن احراق السبحات يبين ما يرد في هذا المقام .

وأما ما ذكره عن ابن عباس في روايته الأخرى فمعناه بعض الأنوار الحسية وما ذكره من كلام العارفين فهو بعض معاني هدايته لعباده وإنما ذلك تنويع بعض الأنواع بحسب حاجة المخاطبين كما ذكرناه من عادة السلف أن يفسرها بذكر بعض الأنواع يقع على سبيل التمثيل لحاجة المخاطبين لا على سبيل الحصر والتحديد فقد تبين أن جميع ما ذكر من الأقوال يرجع إلى معنيين من معاني كونه نور السموات والأرض وليس في ذلك دلالة على أنه في نفسه ليس بنور .

تم التفسير